سلسلة كتاب الجيب
Waha Publishing House
A - 101
أ - ١٠١
خائفة من شيء ما
بلا عنوان
www.liilas.com
باربرا كارتلاند
APPROVED

خائفة من شيء ما

بعدما انقذها دارلينغتون من تعذيب والدها لها، ادخلها الى مدرسة داخلية. نسيها هناك لفترة خمسة سنوات، تذكرها بعدما مات والدها وترك لها ارثاً كبيراً وبدأ الطامعون يهرعون إليها بغية الزواج منها.

www.lilas.com

الفصل الأول

١٨٣١

«إنني أكره هذا الرجل!» قالت الملكة إدليد بينما وصل الفارس الذي يركب صهوة جواد الدوق دارلينغتون إلى نقطة الفوز بسرعة فائقة والتي لا تبعد كثيراً عن منصة الملك وليم الذي يُعرف بطيبته وعدله، وكذلك بروحه المرحة، لذا فقد أخذ يقهقه ضاحكاً عندما سمع تعليق الملكة.

ثم قال: «ربما تستنكرينه، لكن من الصعب جداً أن تكرهي جرأته.»

جنّ جنون الجمع الذي أتى لحضور السباق وابتهجوا لفوز الدوق وأخذوا يلوّحون بأيديهم، ويرمون بقبعاتهم في الهواء بحماس شديد، انه وبالرغم من أن الجواد غاي غلوري قليل الحظ في الفوز عادة، لكن عدداً كبيراً من معجبي الدوق تمنوا فوزه لأنه أحد جياده.

وعندما مشى الدوق بفخر واعتزاز نحو الحظيرة، أخذت التهاني تنهال عليه من كل جانب، مثل «سباق رائع يا دارلينغتون!»

«عملت طيباً أيها الجريء!»

«كعادتك دائماً!»

«لقد عرفنا بأنك ستدهشنا!»

هذا ما تمكن الدوق من سماعه وسط تلك الهتافات الكثيرة من المبتهجين بفوزه، وعندما وصل الدوق إلى جواده غاي غلوري، ربت على عنقه وهنّأ الفارس، بينما أخذت الهتافات من حوله تعلو أكثر فأكثر: «سباق رائع أيها الفارس ريان. تهاني القلبية لك!»

أجاب الفارس ريان: «أشكر سعادتك. على العموم، لم يكن ذلك صعباً علي عندما وصلت إلى الصفوف الأمامية!»

ابتسم الدوق، وابتعد الفارس ليدخل الإسطبل حاملاً سرج الجواد.

علت الهتافات من جديد بعدما أعلنت النتائج الرسمية لهذا السباق، فتوجّه الدوق إلى مقصورته حيث كان فيها أصدقاء كثر له بمن فيهم السيدة ايزوبل وستبري.

لقد كانت سيدة جميلة جداً ومتطورة، وكان الدوق قد تعرّف عليها منذ أكثر من شهر.

من يراها ويرى النظرات التي تطلقها على الدوق، لا يمكنه أن يخطىء بأنها معجبة به.

همست له قائلة: «إنني سعيدة جداً لفوزك، كما انني سأعبّر لك عن سعادتي أكثر عندما تقبل دعوتي.»

ابتسم الدوق وقال: «أخشى من انني لن أتمكن من قبول هذه الدعوة.»

«ولِمَ لا؟»

لم يجب الدوق في الحال، فزمجرت السيدة بكلمات مبهمة وغاضبة.

عندها أسرع الدوق ليقول: «لأنني يا عزيزتي، يجب أن ألبي دعوة قصر ويندسور لتناول طعام العشاء. كما تعلمين إنها دعوة تقليدية لمن يفوز عادة بالكأس الذهبي.»

حاولت السيدة ايزوبل معه من جديد قائلة: «ألا يمكنك أن ترفض هذه الدعوة؟»

أجابها الدوق: «لا أرى من سبب يدعوني كي أهين حضرته برفضي لدعوته، مع انني أعرف حق المعرفة بأنني سأصاب بعسر في الهضم من الطعام الذي سيقدم في القصر.»

ضحكت السيدة ايزوبل دون أن تتمكن من أن تمسك نفسها عن ذلك.

في الواقع، لقد كان هناك العديد من النكات التي كانت تطلق حول نوعية الأطعمة الفقيرة التي تقدّم عادة في كافة القصور الملكية.

ولقد كان جورج الرابع، يُعتبر من الأشخاص الذواقة في اختيار أصناف الطعام، لكن كانت نيّة شقيقه وليم بعد ذلك الإسراف المفرط في الطعام، والذي سبّب ديوناً طائلة، أن يقوم ببعض المدخرات لانقاذ تلك الضائقة المالية.

سألته السيدة ايزوبل بعد ذلك: «ما رأيك بليلة الغد إذاً، هل سترفض دعوتي أيضاً؟»

أجاب الدوق: «اعتمدي علي، وسوف أتمكن من تدبير الأمر بطريقة ما.»

ابتسمت السيدة ايزوبل، لأنها كانت تعلم بأن الدوق وعلى الرغم من كل أخطائه، يحافظ دائماً على وعوده، لذا فإنها ستفعل المستحيل لكي تحافظ على صداقته.

كان للدوق العديد من المعجبات لدرجة أن الناس توقفوا عن الإحصاء لكثرة عددهن.

إنه أمر لا يبعث على الدهشة، إذا أخذنا بعين الاعتبار بأن الدوق ليس فقط بهي الطلعة وأنيق أكثر من أي عضو آخر من النبلاء، ولكنه الأكثر أهمية ومقاماً وثراء أيضاً، وهذه الميزات القوية التي يتمتع بها، جعلته دائماً محط أنظار المعجبات به.

فقد قال له أحد الأعضاء الأكبر سناً للنادي في الأسبوع الماضي: «أفٍ منك يا دارلينغتون، هل هناك سيدة في لندن كلها لم تعجب بك بعد؟»

لم يعتبر الدوق وقتها بأن في سؤاله إهانة له، لكنه أجابه: «إذا كان هناك حقاً سيدة لم تعجب بي بعد، فاعطني عنوانها من فضلك!» لأن الجريء، وهذا لقب الدوق، يملك دائماً الإجابة عن أي سؤال يُطرح عليه.

إنه ليس من الغرابة بأن يحظى بمثل هذه الشعبية بين الكثيرين الذين جاؤوا لحضور السباق، فقد كان يظهر بكامل أناقته المفرطة التي تلفت الأنظار كلما حضر أي سباق وأكثر من أي صاحب جواد، وكانت جياده تعتبر من الجياد الأكثر سرعة ونشاطاً.

كان اللون الأصفر والأسود، من ألوانه المفضلة، ومتى ظهر هذين اللونين مثلاً على سترة فارس أو على عربة للخيل، تشرئب أعناق الناس وتقول فيما بينها: «ها قد جاء الجريء! سنتمتع بأوقاتنا الآن!»

ذلك لإن الدوق كان يتمتع بشخصية مشرقة تتصف بالحيوية والنشاط، وتنعكس تلك المزايا الفريدة على كل من يصادفه أو يقابله.

كانت له قصصاً وروايات فكاهية عديدة، منها أنه شاهد ذات مرة سائق عربة نقل يضرب جواده، وكان الرجل ضخماً، فكسر الدوق كرباجه وضربه ضرباً مبرحاً إلى أن أفقده وعيه، ثم أعاده بعربته إلى منزله، وقال لزوجته ان تضعه في السرير إلى أن يشفى من آلامه وجراحه.

دارلينغتون الجريء!

إن القصص حوله والتي أخذت بالتزايد سنة بعد سنة، كانت قد بدأت منذ ان كان في منطقة أتون وتضاعفت عندما أصبح في منطقة اوكسفورد.

كانت الروايات حوله تعتبر من المواضيع الأكثر أهمية بين معاصريه، والذين أعجبوا به لروحه الرياضية دون أن يحسدوه. كما أنه كان ناجحاً جداً، فشعروا بأنه ما من داعٍ يدعوهم إلى منافسته.

«لقد رفضت أن أخوض ركوب الخيل ضدك أيها الجريء، إلا إذا ركبت الجواد ويداك مقيدتان إلى وراء ظهرك!» أجاب أحد أصدقاء الدوق المقربين عندما طلب منه هذا الأخير أن يشارك في سباق الحواجز في الحقول.

فأجابه الدوق ضاحكاً: «إنني وبطيبة خاطر أوافق على تحدّيك!»

فقال صديقه: «المشكلة معك يا صديقي، بأنك جيد في كل شيء تقوم به! ويحق لي أن أنفر منك لذلك، لكنني لا أستطيع سوى أن أعجب بك تماماً مثل سيدات لندن الغبيات اللواتي مستعدات للقيام بأي شيء لإرضائك.»

فأجاب الدوق بجفاف: «إنك تجاملني الآن!»

إنه، ومع ذلك، اعتقد بأن صديقه كان على حق عندما وصف سيدات لندن بالغباء.

فأولئك السيدات لم يخطر ببالهن بأن الدوق لا يبغي منهن سوى أن يستمتع بحديثه معهن. وبالرغم من أنه واثق كل الثقة بأنه المنتصر دائماً عليهن، تراه يخشى ويرغب في أن يعرف إلى متى قد تستمرين معه.

لكن وبالرغم من شهرته بأنه يفتن السيدات، لا يمكن لأحد أن يعرف موضع اهتمام الدوق وإلى أية واحدة ينجذب أكثر من الأخرى.

انهن يلتففن حوله بإعجاب، وهو حتى لا يعرف أسماءهن، ولا يسعى إليهن، إنما كن يهرولن خلفه.

فقال لهبرت بروهام، وهو أحد أصدقائه المقربين: «الذي يجعلني أشعر بالملل، هو انني مجبر على تحمل هذا التكرار المطرد لمثل هذه الأوضاع في حياتي، بينما الذي أنشده، هو قليل من التنويع.»

أجابه هبرت: «إذا كنت تقصد بكلامك النساء، وتريد شيئاً مختلفاً، إذاً، عليك أن تبحث عن مثل هذا التنويع خارج حدود منطقة ماي فير.»

فقال الدوق وعلى وجهه إمارات التفكير: «أعتقد بأنك على حق، فالنساء اللواتي نعرفهن جميعاً من نفس عجينة واحدة، وقد تدربنّ على الحيل ذاتها، وهن يكررنها دائماً وفي كل مناسبة.»

فسأله هبرت: «هل بدأت تشعر بالتشاؤم أيها الجريء؟»

أجابه الدوق: «هذا ما يبدو فعلاً، فمن الصعب جداً أن تستمر مع سيدة تعرف مسبقاً ما الذي ستقوله.»

مازحه هبرت قائلاً: «أعتقدت بأنه يمكنك أن تجد شيئاً أفضل من التحدث معها!»

ضحك الدوق، لكن كان في ضحكته مرارة، مما دعا صديقه لأن يقول: «لا تدري كم وكم من المرات تساءلت فيما لو أنك أحببت.»

رفع الدوق حاجبيه بدهشة وتعجب من كلام صديقه.

فتابع هبرت: «تعرف تماماً ماذا أعني، لذا لا تتظاهر بمثل هذه الدهشة والاستغراب. أعني ذلك الحب الذي يدفعك فوراً إلى الزواج والاستقرار مهما استلزم.»

«لقد قرّرت ألاّ أتزوج.»

نظر هبرت إليه بدهشة ثم قال: «إنه أسخف قول سمعته حتى الآن!»

أصرّ الدوق على ما قاله متابعاً: «هذا صحيح، لقد فكرت في هذا الأمر منذ زمن بعيد وقرّرت عدم الزواج، لأنني متى بقيت مع امرأة واحدة طول العمر، سأشعر بأنني رجل محطّم.»

خيّم صمت قليل، ثم وكأنما أدرك الدوق بالملاحظة التي قد يعلّق عليها صديقه، تابع: «حسناً، أعرف تماماً بماذا تفكر، لكن لا نية لي في أن أكون مثل الأزواج الآخرين الذين يخونون زوجاتهم، والعكس بالعكس، كما هو حاصل في أيامنا هذه.»

فسأله هبرت غير مصدق: «هل تريد أن تقول لي، بأنك عندما تتزوج ستبقى وفيّاً ومخلصاً لزوجتك؟»

أجابه الدوق: «بما أنك ترى، أن ذلك محال، فأنا لن أتزوج!»

«ألم تفكر بأنه يجب أن يكون لك وريث؟»

فقال الدوق: «هناك أقربائي الكثر، فكلما حاولت أن

أحصيهم أخطىء وأحياناً أنسى بعضهم! وكما تعلم، أن شقيقي الأصغر والذي يعيش في الخارج لأجل صحته، لديه ولدان، فإذا لم يكونا على قيد الحياة عندما أموت، هناك حوالي الثلاثين شخصاً من أبناء أعمامي، عدا الذين تصلني بهم قرابة ليست بالبعيدة وهم كذلك لا يعدون ولا يحصون.»

تنهد هبرت وقال: «أفهم وجهة نظرك، لكن وفي الوقت نفسه، من المؤسف وأنت في سن الكهولة ألاّ تستمتع بولد تعلمه فن ركوب الخيل والرماية، مع أنه قد يستاء منك عندما تختلس نظرات الإعجاب للصديقات اللواتي قد يحضرهن إلى المنزل!»

فقال الدوق بأسف: «يجب أن أتدبّر أمري من دون عائلة، كما انني أعرف جيداً بأنني لن أكون ذلك الوالد صاحب المثل العليا لأبنائه.»

«أوافقك في هذه النقطة.»

خيّم صمت قليل قبل أن يقطعه هبرت قائلاً: «كنت أتساءل فيما لو يستحق أن أقوم معك بتحدي حول إمكانية في أن تقع في شباك الحب أخيراً، فما رأيك بفكرتي السخيفة؟»

اني اتحداك!»

«موافق، لكن ما مدة هذا التحدي؟»

أجابه الدوق ببرود: «لقد تزوج جدي للمرة الثانية وهو في التاسعة والثمانين!»

«كان علي أن أتوقّع أن هناك شيئاً خفياً وراء موافقتك على هذا التحدي وبهذه السرعة! ففي هذه الحالة، هناك احتمال بأن أكون قد توفيت قبل هذا الموعد!»

وافقه الدوق: «تماماً!»

ضحكا بعد ذلك، ثم أخذا يتكلمان بأمور الجياد ومشاكلها، فالحديث عنها مشوّق ولذيذ أكثر من الحديث بأمور النساء.

عاد الدوق بعد ذلك إلى منزله، فأعدّ له خادمه الخاص حمامه، وبعد أن استحم، جلس مع صديق جاء ليزوره مهنئاً لفوزه في السباق، لكن أفكاره كانت منشغلة بسهرة الليلة التي يعتبرها من السهرات المملة.

إن سهرات قصر ويندسور التي كان مجبراً على حضورها، كانت عادة فاترة ومملة، كما كان يدرك بأن الملكة تستنكره وتكرهه.

كان الملك وليم الرابع، رجل اجتماعي، خفيف الظل، وكان قبل أن يعتلي العرش قد أنجب عشرة أولاد من الملكة الألمانية الأصل، التي عزمت على أن تنظف الحياة الفاسقة التي تغلغلت في حاشية المملكة منذ الحكم السابق.

كما أنها رفضت أن تستقبل دوقة سانت البانز الفاتنة وأرملة رئيس مجلس إدارة مصارف كوتس، والتي ورثت عنه ثروة طائلة.

كانت هذه الدوقة في السابق ممثلة ذات سمعة يشك بأمرها، لذا فقد أمرت الملكة بطريقة حازمة وقاطعة بأن هذه الدوقة مرفوضة تماماً في هذا القصر.

كذلك فعلت بالسيدة فيرير التي هي الأخرى كانت ذات سمعة سيئة، لذا فعندما تقدمت منها لتقدم نفسها للملكة أدليد، أدارت هذه الأخيرة وجهها وكأنها تشمئز من هكذا نوع من النساء وتأبى أن تتعرف بهن مهما كانت الظروف.

أما الشيء المبهج في هذه السهرة، وذلك حسب اعتقاد

الدوق، أن في هذه الحفلة أشخاص مرحون وهم من أصحاب الجياد الأصيلة الذين اشتركوا في سباق هذا اليوم.

لكنه وبالرغم من استمتاعه بهذه السهرة، اعتقد أنه كان من الممكن أن يكون أكثر سعادة لو أنه لبى دعوة السيدة ايزوبل بدلاً عن هذه.

ثم أضاف بينه وبين نفسه: مع أن ذلك لن يغيّر ما في نفسي من ملل وضجر.

فقد كانت السيدة ايزوبل كغيرها من اللواتي عرفهن في السابق، امرأة سهلة الانقياد. على العموم، فجميعهن يدرن في نفس الحلقة المفرغة لا أكثر ولا أقل، والسيدة ايزوبل كغيرها، كانت امرأة متزوجة قبل أن تتعرف بالدوق، وقد التقيا لأول مرة، في حفلة أقيمت في نيو ماركت.

لم يكن هناك أدنى شك بالذي شعرت به السيدة ايزوبل ساعة التقت عيناها بعينيه.

لكنها لم تتعرف عليه أكثر، إلا عندما اضطر زوجها أن يغادر الحفلة لأمر هام، عندها وجدت أن الفرصة ملائمة لها، ولا تسألوا عند ذلك عن شعور الدوق بهذه المناسبة التي أتيحت له.

لكنه في الوقت نفسه، وبالرغم من جمالها، شعر بأنه ينقصها شيء ما.

لم يتمكن من التوصل إلى ما قد يكون هذا الشيء الذي ينقصها، لكنه كان لديه إحساساً مؤكداً بأنه ولسبب من الأسباب، أن النساء أصبحن مخيبات للآمال.

«ما الذي أريده؟ ما الذي أتوقعه؟» سأل الدوق نفسه

لمرات عديدة بقسوة بعد أن بدأ يسأم من حياته منذ بلوغه سن الرابعة والثلاثين.

لذا، فإنه يوافق سراً، بأن هبرت كان على حق عندما قال له بأنه بدأ يشعر بالضجر بالرغم من الحياة الاجتماعية التي يُغرق نفسه فيها.

كان يفكر بحديثه مع هبرت فيما هو متوجه بعربته إلى قصر ويندسور، وكيف قال له بأنه لن يتزوج بتاتاً.

ثم قال في نفسه: إنني أجد نفسي فقط عندما يكون الأمر متعلق بالنساء والجياد، وإذا سببت لي زوجتي الملل والسأم كما يحدث عادة بعد الزواج بوقت قصير، فقد أصبح مجرماً!

ضحك عالياً من هذه الفكرة.

لكنه في الوقت ذاته، وبما أن المرأة عنصر أساسي له، عقد العزم على أن أية واحدة منهن، لن تصبح عضواً دائماً في حياته.

كانت الحفلة في قصر ويندسور مسلية تماماً كما توقع لها أن تكون، وأكثر من ذلك أنه شعر بانجذاب إلى زوجة السفير النمساوي الجديد الذي قدّم أوراق اعتماده لمحكمة سانت جايمس لتوه.

كان لزوجة السفير شعراً أحمر اللون وعينين خضراوين، وهذا مزيج لا يتواجد عادة إلا في القصص الروائية، وفي وجهها تعابير لم يرَ الدوق مثلها.

أخذ يطري على جمالها بأعذب الألفاظ طوال السهرة تقريباً، فتجاوبت معه لكن بتحفظ شديد وكأنها تريد أن تبلغه بأنها ليست بعيدة عن فهمه وبأن مثل هذه الأفعال لم

تعد تخدعها، وهذا دعاه أكثر لأن ينجذب إلى عينيها اللتين تومضان ببريق غريب لم يرَ مثله من قبل.

ووعدها قبل أن يترك السهرة، بأنه سيتصل بالسفارة النمساوية حالما يعود إلى لندن.

فكر وهو يبتعد بالعربة، بأن ما وعدها به ليس ارتباطاً فحسب، بل هو موعد فريد والأول من نوعه من مواعيده الكثيرة، ومن المؤكد بأنه سيحافظ عليه.

وبما أن عيناه كانتا على زوجة السفير طوال السهرة، لم يفكر بإيزوبل مرة واحدة، إلى أن وجد حين وصل إلى المنزل رسالة منها.

سلمه الخادم الرسالة قائلاً: «وصلت هذه الرسالة بيد واحد من سائسي الكابتن وستبري بعد مغادرتك إلى الحفلة بقليل.»

استلم الدوق الرسالة مفكراً بأن ما تفعله السيدة ايزوبل عمل غير لائق بإرسالها هذه الرسالة مع أحد سائسي زوجها، لأنها بذلك ستجلب ثرثرة بين الخدم الذين لن يتوانوا عن إبلاغ أسيادهم.

لم يكن الدوق قلقاً، كما هو معروف، على سمعة السيدة ايزوبل، فلقد اعتاد خلال تجاربه الكثيرة أن يرى السيدات يخاطرن بأي شيء إكراماً له.

شعر في هذه اللحظات، بأنها لم تعد تثير اهتمامه مثل واحدة بشعر أحمر وعينين خضراوين.

خامره شعور بأن هذه الرسالة ليست الوحيدة التي تعترض وتحتجّ على غيابه وعلى تأخره بالاتصال.

فقال لنفسه: اوه! لماذا على النساء أن تضع ما تفكر به دائماً على الورق؟

دخل غرفته بعد ذلك وقذف بالرسالة فوق طاولة الزينة ولم يعد يفكر بها إلا بعدما استيقظ في صباح اليوم التالي عندما وجدها أمامه.

ساعده خادمه الخاص على ارتداء ملابسه التي كانت تنساب بإتقان تمنّى لو أنه ينعكس أيضاً على كل شيء في حياته العادية.

قال خادمه الخاص: «هذا معطفك الجديد من وستون يا سيدي.»

أجاب الدوق بعدم اهتمام: «حقاً؟ آمل بأن يكون مريحاً.»

«آمل ذلك أيضاً يا سيدي، فأنت تتمتع بعضلات قوية يرى الخياطون صعوبة في حياكة بدلاتك.»

تكلم الخادم وفي نبرة صوته فخر واعتزاز بسيده، كما يفخر ويعتز بقية الخدم به، ليس فقط من أجل قوامه المميز، بل لكونه رياضياً ممتازاً.

وقد يدهش الدوق لو يعرف كيف أن الخدم لم يلاحقوا فقط أخبار فوزه في السباق، بل لاحقوا أيضاً أخبار تفوّقه بالرماية.

فهو وعندما يشترك في سباق الخيل في القفز عبر الحواجز والذي كان يعدّه بنفسه، كان كل فرد من خدمه، يحاول أن يجد من يتحداه على فوز الدوق.

لكنه وعلى مدى سنوات طويلة، كان يفوز بأية مباراة تقام. لذا، فقد كانوا يفتخرون بأن يكون الدوق سيدهم، ليس لأجل فوزه الدائم فقط، بل لأنه كان كريماً وطيباً معهم، وكان في المقابل يتوقع من خدمتهم أن تعجب خاطره وتسعده.

قال خادمه الخاص: «ممتاز! إن المعطف يناسبك تماماً! إنني لا أجد أي خطأ فيه!»

تكلم الخادم من الخلف معجباً بخياطة المعطف، لكن عندما حاول الدوق أن ينظر إلى نفسه في المرآة، رأى رسالة السيدة ايزوبل بين أدوات الزينة وزجاجات العطور، وقال بينه وبين نفسه انه يتوجب عليه ألا يتركها مكانها، فأمسك بها وأخفاها في جيبه.

وكان على وشك أن يغادر الغرفة عندما سمع طرقاً على الباب، وعندما فتحه الخادم، ظهر منه سكرتيره الخاص الذي يعتبره أيضاً المراقب على نفقاته وحساباته.

فسأله الدوق عندما رآه: «هل تريدني يا رمسغيل؟ إذا كانت هناك رزمة من الرسائل، عليها أن تنتظر لحين عودتي إلى لندن، لأنني أريد أن أصل إلى ميدان السباق باكراً اليوم، فكما تعلم، الجواد فوكس هنتر مشترك في السباق الأول.»

أجاب رمسغيل: «أعرف ذلك يا سيدي، ومن دون شك سيفوز. بالمناسبة، ان فارس الجواد بعث لك برسالة شفهية قائلاً بأنه سيكون شاكراً لك إذا تمكن من أن يتكلم معك قبل أن يدخل الميدان.»

ابتسم الدوق وقال: «أعتقد بأنه يريد أن يسمع تعليماتي وتوجيهاتي له. سأقول له، بأن يحترس من الجواد الفرنسي. يخامرني شعور بأن فارس اللورد ألثام قد يكون غبياً إذا كان يعتقد بأنه سيفوز في هذه المباراة.»

فقال رمسغيل: «إنني متأكد من ذلك يا سيدي، لكنني أريد أن أتكلم معك بأمر آخر.»

وبينما كان رمسغيل يتكلم، نظر إلى خادم الدوق نظرة ذات معنى، ففهم هذا الأخير وخرج بأدب من الغرفة.

سأله الدوق عندئذ: «ماذا هناك يا رمسغيل؟ انك تعلم بأنني في عجلة من أمري!»

«أعرف يا سيدي، لكن هناك رسالة مقلقة جئت بها من لندن معي الليلة الماضية. إنها من مديرة المدرسة الداخلية في سانت تريزا.»

نظر الدوق إلى سكرتيره باستغراب ولم يستطع سوى أن يردّد: «مديرة المدرسة...»

فقال رمسغيل بسرعة: «أعلم جيداً بأنك ستتذكر يا سيدي، إنها مدرسة سانت تريزا في باريس والتي أرسلت إليها الآنسة فيليسا دارل منذ خمسة أعوام.»

هتف الدوق قائلاً: «اوه! لقد نسيت أمر هذه الطفلة! نعم بالطبع، لقد تذكرت الآن بأنها المدرسة الأنسب حيث يمكن لها فيها أن تتثقف ثقافة عالية دون أن يتمكن والدها من الوصول إليها.»

الآن، وبعد أن ذكّره السكرتير بهذا الأمر، تذكر الدوق كل شيء بوضوح تام، تذكر ذلك اليوم منذ خمسة أعوام حين كان عائداً إلى القصر بعد رحلة للصيد. كان صديقه هبرت بروهام معه، وكانا قد تركا جواديهما المتعبين في عهدة سائسين، وتابعا رحلتهما بسرعة في عربة للخيل فوق طريق وعرة، إلى أن أخذ أحد الجياد الأربعة يعرج وبدا غير قادر على مجاراة الجياد الأخرى بالعدو.

شدّ الدوق رسن الجياد اوقفها، ثم نزل من العربة ليرى ما قد حدث، ليجد بأن الجواد الذي أخذ يعرج ويعرقل مسير

الجياد الأخرى، قد أزيحت حدوته من مكانها وبقيت مسمّرة في مكان آخر، الأمر الذي جعله يصعب عليه أن يتقدم أكثر.

كان الدوق على خبرة واسعة في التعامل مع الجياد، لكن بوجود الجواد بين قصبتي العربة، تعثر عليه أن يسحب حدوته ويستمر بدونها.

عندما نظر حواليه بحيرة، وجد بأنه لا يبعد كثيراً عن إحدى القرى الصغيرة حيث من المؤكد أنه قد يجد حدّاداً.

فكر أنه لو قاد هذه الجياد بحذر وانتباه، قد يصلان إلى تلك القرية الصغيرة التي تبعد حوالي الخمسين ياردا عنهما، كما أن هذه الطريق تؤدي إلى منزل يشغله أحد أبناء أعمامه.

أشار الدوق بإصبع يده إلى سطح منزل يطلّ بين الأشجار العالية قائلاً: «هناك يعيش أدموند، أنه رجل متعب وممل، لكن لا خيار لنا سوى أن نطلب المساعدة منه في هذا الوقت العصيب.»

فقال هبرت وكأنه يحاول أن يطمئن نفسه: «ان الأمر لن يستغرق طويلاً.»

عادا إلى العربة، وقادها الدوق بهدوء إلى أن وصلا إلى ممر صاعد يؤدي إلى الإسطبلات التي كانت في جانب واحد من المنزل.

ظهر سائس كبير في السن، وعندما أخبره الدوق بالذي حصل، قال له انه ومن حسن حظه أن الحدّاد موجود في هذه اللحظات هنا ويضع حدوات في قوائم أحد الجياد، وسيساعدهما على حل مشكلتهما.

فقال هبرت: «لقد حلّت المشكلة.»

وبما أن الدوق كان يهتم دائماً وبصورة خاصة بجياده، بقي مكانه ليراقب بنفسه فكّ الجواد عن العربة، وإزالة الحدوة التي لم تعد نافعة من أسفل قائمته، ومن ثم تركيب حدوة جديدة.

أدرك بعد انتهاء هذا العمل، بأنه وهبرت، وخلال خمسة دقائق سيصبحان في طريقهما من جديد، لذا فقد قال له: «أعتقد أن الواجب يحتم علينا أن نقدّم احتراماتنا لأدموند ونشكره على حسن ضيافته.»

وافق هبرت على الفور قائلاً: «نعم، بالطبع.»

ابتعدا عن الإسطبل صعوداً إلى المنزل، واستقبلهما أحد الخدم الذي أرشدهما إلى صالة كبيرة للاستقبال، حيث وجدا امرأة لا تمت إلى الجمال والجاذبية بأي شيء، والتي كانت قد تزوجت ابن عم الدوق منذ عامين تقريباً. عندما رأتهما وقفت بسرعة وعلى وجهها ملامح الدهشة والاستغراب.

«أرجو أن تعذرينا للدخول عليك دون استئذان، لكن وبينما كنا عائدين من رحلة للصيد، فقد أحد الجياد حدوته.» قال الدوق ذلك بأدب رفيع كان من إحدى خصائصه التي اشتهر بها.

ثم تابع يشرح ما حدث، وأعربت لورا دارل كم أنها كانت سعيدة بأن تكون في خدمتهما.

فسألتهما: «هل ترغبان بشراب منعش؟»

كان في نبرة صوتها حماس شديد لهما، فأدرك هبرت السبب في ذلك أنها ومن دون شك مسرورة باستقبالهما وتجد بوصولهما المفاجيء إلى منزلها، راحة من السأم

والضجر اللذين تعيشهما مع زوجها ابن عم الدوق.

فأجابها الدوق: «هذا لطف كبير منك، لكن هبرت وأنا في عجلة من أمرنا لنصل إلى القصر ولنغيّر من ملابسنا. فكما تلاحظين، أننا في حالة كبيرة من التعب والإتساخ معاً.»

في الحقيقة، كانت أحذيتهما التي تكون ملمّعة عادة، قد غُطت بطبقة من الوحل الجامد، كذلك ملابسهما التي لا يمكن لأي كان أن يتعرف على لونها الأساسي.

أجابت لورا دارل: «فهمت، لكنني متأكدة من أن أدموند يرغب برؤيتكما قبل أن تغادران.»

فسألها الدوق: «هل هو موجود الآن؟»

«نعم، إنه يضرب ابنته.»

اعتقد الدوق للوهلة الأولى بأنها تمازحه، فكرّر ما قالته بهدوء: «يضرب ابنته... لكن ماذا؟»

هزّت السيدة دارل بكتفيها دون أي اهتمام، ثم قالت: «إنها تزعجه، فهي في الحقيقة طفلة متعبة جداً، لكنني أعتقد بأنه قاسي جداً معها.»

قطّب الدوق حاجبيه بينما سألها: «أين يمكنني أن أجده؟»

أجابت لورا دارل: «في المكتبة، لكنني لا أعتقد...»

توقفت عن الكلام فجأة، فمهما كانت ستقول، كان سينزل على آذان صمّاء، لأن الدوق خرج من صالة الاستقبال وتوجّه مباشرة إلى المكتبة.

تناهى إلى سمعه عندما اقترب من المكتبة صراخ قوي يعقبه عويل وبكاء.

فتح الدوق الباب وسمع الصغيرة تتوسل إلى والدها

قائلة: «لا... لا يا والدي... لم أعد أحتمل أكثر من ذلك!»

ثم سمع صوت عصا الخيزران تلوح في الهواء، فصرخت الصغيرة من جديد متألمة.

صعق الدوق لما شاهده أمامه، فقد وجد ابن عمه أدموند بوجهه العابس المقطّب، يضرب الصغيرة بعصا من الخيزران التي تلسع لسعاً، بينما تقوقعت هي على الأرض في منتهى الضعف.

لقد ضربها بعصا الخيزران ضرباً مبرحاً، حتى أن ملابسها التي كانت ترتديها، تمزقت وسالت منها الدماء.

الدخول المفاجيء للدوق جعل من أدموند يلتفت بسرعة ويرخي عصا الخيزران إلى جانبه.

ثم هتف: «مرحباً يا سلكومب. ماذا تفعل هنا؟»

كان هناك العدد القليل ممن ينادون الدوق باسم سلكومب.

أجابه الدوق ببرودة شديدة: «على ما يبدو، كان يجب علي أن أجيء إلى هنا قبل الآن!»

ثم تقدم نحو ابن عمه وسحب عصا الخيزران من يده، وكسرها فوق ركبته.

رمى الجزءين المكسورتين على الأرض، ثم انحنى وحمل الطفلة التي كانت تبكي بكاء موجعاً.

كان وجهها محتجباً بشعرها الأشقر الطويل، وعندما حاول الدوق أن يلامس كتفها ليخفف عنها، صرخت بألم بسبب الجروح التي سببها لها والدها.

ثم التفت الدوق إلى ابن عمه باحتقار، كان من الممكن أن يخيف أية شخصية عنيفة وقوية.

وقال: «سآخذ هذه الطفلة منك وبعيداً عنك، كي أمنعك من ضربها بعد الآن. فلو لم تكن ابن عمي، لكنت لقنتك درساً لن تنساه. ودعني أوضح لك شيئاً فأنا لن أقابلك ولن أتعرف بك بعد اليوم!»

ابتعد الدوق عنه تاركاً أدموند دارل فاغراً فاه بدهشة ومسمّر في مكانه يعجز عن التحرك.

قال الدوق لأحد خدم المنزل عندما أصبح في القاعة: «أحضر معطف وقبعة لهذه الصغيرة.»

أجابه الخدم: «أعتقد أن أشياء الصغيرة فيليسا موجودة في الطابق الأعلى يا سيدي.»

أمره الدوق قائلاً: «إذاً أحضرها في الحال!»

أسرع الخادم طائعاً، وفي تلك الأثناء، سمع هبرت صوت الدوق من القاعة الأخرى وتبعه صوت لورا دارل وهي تقول: «ما الذي حدث؟ لماذا تحمل فيليسا؟»

أجابها الدوق: «سآخذها بعيداً عن زوجك الذي لا يجدر به أن يكون والداً لطفلة، وبما أنك زوجته، أقدّم لك تعازي الخاصة.»

كان في نبرة صوت الدوق مرارة وسخرية، وفي نظرته إليها احتقار، لأنها سمحت بمثل هذه القسوة والبربرية في هذا المنزل.

فقالت لورا دارل بوقاحة: «إن فيليسا تقوم بجلبة لا معنى لها! لكنني سأعتني بها جيداً.»

كان الدوق على وشك الإجابة حين رأى الخادم يهبط السلالم بسرعة وهو يحمل بيده شالاً ومعطفاً للصغيرة فيليسا.

كانت الصغيرة ما زالت تبكي لكن ليس بنفس القوة والشدة.

وبلطف شديد يثير الدهشة، أحاط الدوق الشال حول الصغيرة، فتلطخ بدمائها المنسالة، ثم ألبسها معطفها ووضع قلنسوة المعطف فوق رأسها.

قالت لورا: «إنني آسفة، لكنها ليست طفلتي، وإذا كان أدموند يريد ضربها، فلا أرى أنه يمكنني التدخل في هذا الأمر!»

أجابها الدوق: «إنني لا أتوقع منك أن تتفهمي هذا الأمر، ولقد أوضحت لزوجك بأنني آمل ألاّ أرى أي منكما ثانية. فلو حاولتما زيارتي في قصري، سيطردكما الخدم عنوة! هل هذا مفهوم؟»

ومشى نحو الباب الخارجي ليجد العربة تقف بانتظاره في حديقة المنزل.

أدخل فيليسا العربة، ثم صعد هو الآخر وجلس على المقعد يمسك بالرسن، فتبعه هبرت وجلس إلى جانبه.

رمى الدوق بقطعة نقدية للسائس، وابتعد بالعربة دون أن يلقي نظرة أخيرة على الباب الخارجي للمنزل ليرى إن كانت لورا دارل تراقب ابتعادهم.

لقد أدرك من ملامح وجهها، بأنها تعي عقوبة الجريمة التي ارتكبها زوجها والتي سكتت عنها هي بالذات.

انهما سينكران من العائلة وسيحتجبا عنها في كل اجتماع قد يُقام في أية مناسبة، وهذا أمر سيلحق الأذى بكرامتهما وسيسبب لهما وصمة عار يندمان عليها حتى آخر أيام حياتهما.

لقد غضب الدوق من تصرف ابن عمه لأنه كان دائماً يكره القسوة على الأطفال كما الحيوانات الذين لايمكنهم الدفاع عن أنفسهم.

وكان هبرت يعرف تماماً ماذا يشعر به الدوق في تلك الأثناء، لذا فانه لم ينطق بكلمة واحدة وخيّم على الجميع صمت ثقيل وبارد، إلى أن، وبعد أن أصبحا على مسافة بضعة أميال من قصر دارلينغتون، قطعت الصغيرة التي كانت تجلس بينهما الصمت لتقول بتوجل: «هل أنت حقاً... ستبعدني عن المنزل؟»

أجابها الدوق: «إنني متأكد، بأنك لا ترغبين بالبقاء مع والدك.»

نفت الصغيرة بحركة من رأسها ثم قالت: «هل... هل تعتقد بأنه سيلحق بي... ويعيدني؟»

«لن أسمح له بذلك.»

وبعد أن قطعوا مسافة أكبر، سألها فجأة: «كم عمرك أيتها الصغيرة؟»

«إنني في... الثالثة عشرة من عمري.»

نظر إليها وقال في نفسه بأنها تبدو أصغر من سنها بكثير، ثم قال: «أعتقد أنه آن الأوان لك لأن تذهبي إلى المدرسة.»

أجابت فيليسا: «إنني... إنني أرغب حقاً بذلك، فلا أحد علمني شيئاً منذ أن توفيت والدتي... لأن والدي كان يقول بأنه لا يملك المال الكافي لذلك.»

ففكر الدوق بطريقة ابن عمه أدموند حين يريد أن يقتصد بالمصاريف وذلك فقط عندما يكون الأمر متعلق بثقافة ابنته الوحيدة.

خيّم الصمت عليهم من جديد ولم يطرح الدوق أية أسئلة أخرى على فيليسا، إلى أن اقتربوا من القصر الكبير حيث ترفرف راية الدوق فوق سطحه.

بدا القصر مؤثراً جداً عند الغسق، كما انبعث النور من أكثر نوافذه يتوهج مرحباً بالقادمين.

تقدم الدوق بالعربة حتى مدخل باب القصر ثم خرج منها، عندها صرخت فيليسا بجزع: «إنني... إنني لا أستطيع أن أتحرك!»

أدرك الدوق ما تعاني منه، فالجروح التي سببتها عصا خيزران والدها وسالت منها الدماء، كانت قد تجمدت الآن على ثيابها فصعب عليها أن تأتي بأية حركة.

صعد الدوق إلى درجة العربة، وساعدها بحذر وروية، ثم حملها بين ذراعيه.

شعر عندما حملها بأنها ترتجف من الألم، لكنها لم تتذمر من ذلك، فأسرع بها إلى داخل القصر، وقال لرئيس الخدم الذي استقبله عند الباب: «قل للسيدة كينغدوم بأنني أريدها في الحال!» ثم بدأ بصعود السلالم إلى الطابق الأعلى.

* * *

كان على الدوق أن يغادر إلى لندن في صباح اليوم التالي، فبعد أن استحم من عناء السفر وغيّر من ملابسه، ذهب إلى الغرفة التي ترك فيها فيليسا في عهدة مدبرة المنزل.

قرع الدوق باب الغرفة، ففتحته السيدة كينغدوم ليجد فيليسا في السرير، فسأل: «كيف حالها؟»

«إن ظهرها في حالة رهيبة يا سيدي! لا يمكنني أن أتصوّر كيف تُعامل فتاة صغيرة بهذه الوحشية!»

لم يجب الدوق، لكنه أخذ يتقدّم من سرير الصغيرة الذي كان من الحجم الكبير، والذي ظهرت فيه فيليسا صغيرة جداً بينما كانت تلتف بالغطاء.

استطاع للمرة الأولى أن يتبين ملامح وجهها بعد أن سرّحت السيدة كينغدوم شعرها وأبعدته إلى الوراء.

فكر الدوق كم أنها نحيلة بسبب سوء التغذية، وبما أن عينيها كانتا متورمتان من كثرة البكاء، فلم يبدُ عليها أية مسحة من الجمال.

لكنه مع ذلك، رأى أنه وبعد الذي حدث معها، فهي تثير الشفقة في النفوس. جلس على حافة السرير ثم قال: «إنني متأكد بأن السيدة كينغدوم جعلتك تشعرين بالراحة، لذا لا عليك أن تقلقي من شيء بعد الآن كي تتحسن صحتك وتعود إليك نضارتك.»

تعلقت فيليسا فيه وقالت: «هل هذا حقاً صحيح؟ وهل انني أستطيع أن أبقى معك؟»

كانت السيدة كينغدوم قد خرجت من الغرفة عندما بدأ الدوق يتكلم إلى فيليسا، وانتظرت في الخارج إلى أن ينادي عليها من جديد.

لذا، فهو الآن وفيليسا بمفردهما في هذه الغرفة، فتابع يقول: «أريدك أن تصغي إلي يا فيليسا.»

«إنني أصغي إليك.»

ونظرت إليه بوجهها الشاحب والهزيل وهي ما زالت متعلقة به وكأنها بعملها ذلك تريد أن تتأكد

أكثر بأنها بأمان وبأنها ليست تعيش وهماً من الأوهام.

فقال الدوق: «أشعر أنك لن تنزعجي لو أنك لم تشاهدي والدك من جديد، لذا يا فيليسا، سأجعلك تذهبين إلى المدرسة حيث لن تكوني سعيدة فقط، بل بعيدة عن كل شيء كان قد سبّب لك الانزعاج والأذى.»

فقالت فيليسا: «ولن... يتمكن... من استعادتي؟»

كان من الواضح للدوق أن الصغيرة تخشى وتخاف والدها ولها كل الحق في ذلك.

أجابها الدوق: «أعدك بأن والدك لن يلمسك مرة أخرى، كما انني سأمنعه من رؤيتك.»

«لكن... هل سأراك... أنت؟»

أجابها الدوق: «نعم، بالطبع. لكن ما يهم الآن، هو أن تكوني مع فتيات يناهزونك في السن وأن تتعلمي أشياء ضرورية لكِ، وأنا واثق من أنك ستجدين متعة في كل ذلك.»

«سأحاول... ألا أكون... جاهلة... كما أنا عليه الآن.»

رغبتها في تحصيل العلم، أثرت بالدوق، ففكر بأنها يجب أن تكون واحدة من عائلة الدارل الذين يُعرفون بذكائهم ومهارتهم.

إن العديد من عائلة الدارل بل أكثرهم، كانوا أذكياء، لكن وفي نفس الوقت، كان هناك قلة منهم أغبياء مثل والدها.

قال الدوق: «حاولي أن تنامي الآن، واتركي مشاكلك وهمومك لي. إنني مضطر للذهاب إلى لندن صباح الغد، لكن كل شيء سيكون على خير ما يرام، وبإمكانك أن تطلبي أي شيء تريدينه، أي شيء!»

بدت للوهلة الأولى كأنها لم تدرك تماماً ما قاله لها،

لكنها هتفت بعد قليل بسعادة وقالت: «شكراً لك... شكراً لك! إنك وعندما أخرجتني من المنزل... لم أصدق... ما يحدث... واعتقدت بأنني أحلم لا محالة.»

أكّد لها الدوق قائلاً: «لكنه حدث فعلاً، كما أنك لن تعاني بمثل هذه التعاسة والكآبة بعد اليوم.»

ثم نهض وتابع يقول: «لا تنسي، ستنالين أي شيء تطلبينه! فما عليك سوى أن تطلبي!»

هتفت فيليسا بسعادة ونظرت إليه نظرة أرادت أن تشكره بها، وكأنه أدرك ما كانت تعتقد بنظرتها تلك، مال نحوها وقبلها فوق جبينها قبلة أبويّة.

كانت بشرتها باردة، كأنها ما زالت تعاني من تلك الصدمة القاسية التي لا يتصورها العقل البشري.

ثم قال: «إلى اللقاء يا فيليسا. لا تقلقي من أي شيء يا صغيرتي، وسيكون كل شيء على خير ما يرام كما وعدتك.»

سحب يده من يدها بعد ذلك وتوجه إلى الباب، ثم التفت إليها ولوّح بيده، فرفعت يدها تلوّح له هي الأخرى.

كان الدوق يعلم أنه كلما حاولت فيليسا أن تتحرك الآن، سوف تتوجع وتتألم إلى أن تلتئم جراحها كليّاً. وفكر بأنه يجب أن يعود إلى القصر خلال ثلاثة أيام لرؤيتها من جديد، لكنه تأخر في لندن بسبب بعض الأعمال، فسافرت فيليسا دون أن يتمكن من رؤيتها.

لقد أوكل السيد رمسغيل في أن يقوم بكافة التدابير اللازمة لإدخال فيليسا إلى المدرسة الداخلية التي تقع في ضواحي مدينة باريس. لقد كان يعلم أن هذه المدرسة ذات شهرة واسعة، كما أن المسؤولين فيها يراقبون الفتيات

مراقبة شديدة ويتشدّدون بالتمسك بالأخلاق والفضيلة.

وكان الدوق قد تأكد بنفسه أن مدبرة المدرسة لن تسمح لأدموند دارل بالتدخل في ثقافة ابنته لو حاول ذلك.

لم يكن الدوق يتوقع أية مشاكل قد تصدر عن ابن عمه، إنما مع رجل يتمتع بمزاج متقلب مثله، يمكن للمرء أن يتوقع أي شيء، خاصة بعد أن نبذه لذا، فهناك احتمال كبير في أن يحاول استرجاع ابنته التي عاملها بقسوة ما بعدها قسوة.

كما نقلت إليه السيدة كينغدوم معلومات كانت قد أخبرتها بها فيليسا، من أن الصغيرة كانت تُضرب باستمرار وأنه يكرهها كرهاً شديداً، لكنه لم يكفه كل ذلك، بل جعلها تعيش بصورة دائمة على فتات الخبز والماء.

ومما قالته السيدة كينغدوم: «انه عمل مخزٍ وشائن يا سيدي، خاصة أنه يحدث لواحدة من سلالتك الأرستقراطية.»

وافقها الدوق على الفور: «معك حق، يا سيدة كينغدوم. ومن أجل ذلك أنا عازم على أن أضع فيليسا في مكان أمين لا يمكن لوالدها أن يجدها فيه، وعندها فقط تكون بعيدة عن متناول يده.»

أجابت السيدة كينغدوم: «إنني واثقة من حكمك يا سيدي. لكنني لم أتوقع خلال حياتي كلها، ان أرى جسد فتاة صغيرة مشوّه بهذا الشكل!» توقفت عن الكلام قليلاً قبل أن تتابع: «والذي أعتقده يا سيدي، إذا لم تفارق هذه العلامات جسدها، فإنها لن تفارق تفكيرها حتى آخر يوم من حياتها!»

تمنى الدوق في ألاّ يصحّ ما أعربت به السيدة كينغدوم، لكنه وفي الوقت نفسه، كان يتمنى من هذه الوحشية التي

تركت آثاراً واضحة على جسدها، ألا تؤثر على مظهرها الخارجي على المدى الطويل.

وبعد ذلك، وبما أنه يعيش حياة تضجّ بالأحداث والمشاغل، نسي كل شيء يتعلّق بها.

كان السيد رمسغيل يدفع كل أقساط المدرسة، وكان قد أوضح لرئيسة المدرسة بأن تُعطى فيليسا أي شيء تطلبه، ولم يعد الدوق منذ ذلك الوقت يسمع شيئاً لا عن ابن عمه ولا عن فيليسا.

تذكر الدوق كل ذلك وعاد وبأفكاره إلى الوقت الحاضر فسأل سكرتيره: «ماذا هناك؟»

«لقد كتبت رئيسة المدرسة رسالة تقول فيها ان عدداً من الأسياد يتطفلون عليها منذ عدة أسابيع، يدّعون بأن هناك صلة عائلية تربطهم بك يا سيدي، ويطلبون بأن يُسمح لهم بالتكلم مع فيليسا.»

حوّل السيد رمسغيل نظره إلى الرسالة التي في يده ثم تابع يقول: «لقد رفضت رئيسة المدرسة طلبهم بالطبع، وتنتظر أوامرك بهذا الشأن.»

بدا الدوق مذهولاً ومرتبكاً مما سمعه من سكرتيره، ثم قال: «إنني لا أفهم شيئاً. من يكونوا هؤلاء الأسياد ولماذا يطلبون مقابلة الصغيرة دون أن يفصحوا عن السبب في ذلك؟»

جاء دور السيد رمسغيل الآن ليبدو مندهشاً وقال: «لكن الا يجدر بك يا سيدي أن تكون على معرفة بالظروف المستجدة؟»

أجاب الدوق بتوتر: «ظروف؟ أية ظروف؟ لا أدري ما الذي تحاول أن تقوله يا رمسغيل؟»

ارتبك السيد رمسغيل كما لم يرتبك في أي وقت مضى، وقال بنبرة متقطعة: «يصعب علي أن أصدق ما يحدث... أعرف أن الخطأ يعود لي... لكنني كنت متأكداً بأنك شاهدت التقرير.»

«أي تقرير؟ إنني لا أفهم شيئاً!»

«لقد توفي السيد أدموند منذ حوالي الشهرين يا سيدي!»

دهش الدوق وتساءل: «توفي؟ لم يذكر أحد شيئاً كهذا أمامي، لكنني أعتقد أن بوفاته قام بشيء جيد لمن حوله، كما أنني أثق بأن أحداً لن يلبس ثياب الحداد عليه.»

وتذكر الدوق كيف بدا أدموند شنيعاً آخر مرة قابله فيها يوم أخذ منه فيليسا الصغيرة.

ثم قال رمسغيل: «إذا كنت لم تلحظ تقرير وفاته، وألوم نفسي كل اللوم لأنني لم ألفت نظرك إليه، فهذا يعني أنك، بل من المؤكد، لا تعرف بأمر الوصية التي حرّرها السيد أدموند منذ عشرة أيام تقريباً...»

قاطعه الدوق قائلاً: «الوصية؟ لا أصدق أنه كان لديه تلك الأموال التي تُذكر والتي يمكن أن يتركها للوريث.»

«سبعماية ألف من الجنيهات يا سيدي!»

بهت الدوق وقال: «ماذا تقول؟»

من الواضح أن الدوق لم يتوقع هذا قط.

ثم تذكر وبغموض، بأن أحدهم أخبره بوفاة أحد أقارب أدموند الذي لم يتزوج قط، وترك له بعد موته كل شيء كان يملكه.

لكن الدوق لم يعرف وقتها قيمة تلك الممتلكات التي ورثها أدموند، وربما كانت في ذلك الوقت لا تساوي شيئاً،

لكن قيمتها تضاعفت وتزايدت مع الوقت، كما حصل في السنوات الأخيرة بجميع الممتلكات والعقارات في بريطانيا.

كرّر الدوق: «سبعماية ألف من الجنيهات! إنها والحق ثروة لا يستهان بها!»

«وكل قرش منها، تُرك للآنسة فيليسا يا سيدي.»

صعق الدوق وفكر أنه منذ أخذ فيليسا من والدها أمر السيد رمسغيل بأن يدفع لها أقساط المدرسة وأي شيء آخر قد ترغبه، وكان همه الأول والأخير أن يبعد أدموند نهائياً عن ابنته كما ابتعد عنه هو أيضاً.

فهم الآن كل شيء، منذ أن أصبحت فيليسا الوريثة الشرعية، ووريثة ثرية جداً، أخذ الأسياد يحاولون الاتصال بها طمعاً بثروتها التي لم تكن على البال.

إنهم مثل الأسياد الذين تعرّف بهم في لندن ممن يلاحقون الوريثات الثريات بعزم وثبات.

ثم قال رمسغيل بيأس: «أعذرني الآن يا سيدي لأنني سأتركك مشغول البال في هذه المسألة، لكنني أقسم لك بأنه لم يخطر ببالي ولا للحظة بأنك لا تعرف أولاً بوفاة ابن عمك، وثانياً بالثروة التي هبطت على الآنسة فيليسا.»

«لماذا لم يترك شيئاً لزوجته؟»

«لقد سمعت يا سيدي منذ عام مضى، بأن السيدة دارل أتهمت بالخيانة، فطردها السيد أدموند خارج منزله.»

فعلّق الدوق قائلاً: «لقد فعل الشيء الصحيح، لكن كيف يمكن أن تلام على خيانتها مع رجل مثل أدموند؟» ثم أخذ يفكر للحظات قليلة قبل أن يقول: «أعتقد يا رمسغيل، أنه

يتوجب علي أن أسافر إلى باريس لأرى بنفسي ما يحدث مع الآنسة فيليسا.»

«إنها ومن دون شك فكرة جيدة يا سيدي، لكن لا تنسى ارتباطاتك الكثيرة.»

أجابه الدوق: «الغيها بأكملها! سأذهب إلى لندن مباشرة بعد أن أحضر السباق الأول.»

«حسناً يا سيدي، سأقوم بدوي بالتحضيرات اللازمة لسفرك إلى باريس.»

كان رمسغيل يتكلم بثقة مع أنه كان يعلم أن مثل هذه التحضيرات تحتاج منه إلى جهد كبير، خاصة وأن موعد السفر سيكون في صباح اليوم التالي.

لكن هذه التحضيرات كانت من النوع الذي يتفوّق فيها عادة ويفتخر في دقة تدبيرها وتنظيمها. لذا، فقد قال الدوق باعتزاز: «إنني متأكد يا سيدي بأن كل شيء سيكون عند حسن ظنك.»

فقال الدوق بأدب رفيع: «أشكرك يا رمسغيل.» وخرج من الغرفة وهو يفكر ليس بفيليسا فحسب، بل أيضاً بالسباق الذي سيجري بعد وقت قليل من الآن.

لقد كان متأكداً كل التأكيد بأن الجواد فوكسهنتر هو من سيفوز.

الفصل الثاني

سافر الدوق في اليوم التالي براحة بال وطمأنينة، وذلك بالطبع يعود إلى تنظيم ودقة السيد رمسغيل في إجراء المعاملات، كما أن الدوق كان يحرص دوماً ومنذ وقت طويل، بأن يكون كل شيء جاهز ومعدّ له حتى لو صدرت أوامره منذ وقت قليل. فلو في أية لحظة، شعر بالملل وفكّر أن هناك شيء ما قد يسليه ويفرج الهم عن قلبه في جزء آخر من هذا العالم، يصدر أوامره، وكالآلة تنطلق عربته تنهب الأرض نهباً.

سافر من لندن عن طريق دوفر بعربته المريحة التي خصّصت فقط للرحلات الطويلة والمتعبة، كما أن جياده كانت جاهزة ونشطة، فوصل إلى دوفر بالرغم من طول المسافة، في وقت حطّم فيه الأرقام القياسية.

وجد اليخت الذي يملكه يرسو في الميناء وكأنه هو الآخر ينتظر أوامره ومستعد للإبحار في أي وقت يريده الدوق.

صعد الدوق إلى سطح اليخت الذي لم ينطلق به إلا بعد نصف ساعة من الوقت، ثم نام بسلام في غرفة الكابين الواسعة والمريحة، والتي صمّمت حسب ذوقه، وعندما استيقظ من النوم، كان اليخت قد وصل إلى كاليه وذلك عند الفجر.

أخرجت عربته بجيادها من اليخت إلى الشاطىء بينما كان هو يتناول طعام الفطور.

لقد عرف ومن خلال سفراته العديدة، بأنه عندما تستمر الرحلة لفترة طويلة من الوقت، يُصبح الأمر مملاً ومتعباً لذلك فهو متأكد تماماً أن مرافقيه لديهم جياداً ممتازة يمكنه إن شاء أن يمتطي الجواد، بينما يقود العربة مرافق آخر مع خادم يجلس إلى جانبه.

كان البريطانيون معتادين على رؤية حاشية الدوق بأناقتهم الكاملة ويميزونهم عن أية حاشية أخرى، لذا فظهوره مع تلك الحاشية لم تدهشهم كما أدهشت الفرنسيين.

لقد أظهروا تقديراً لأناقته، وشهقوا بذهول تام في البداية، ثم لوّحوا له بأياديهم بعفوية صادقة وبحماس شديد.

ليس من العجب أن يتأثروا ويندهشوا.

فعجلات العربة الصفراء، ليست بالتأكيد كعجلات أية عربة أخرى، فقد كانت تلمع بوهج شديد تحت أشعة الشمس الساطعة.

كما ارتدى حوزي الدوق ملابس خاصة بنفس لون عجلات العربة، بينما تدلى من قبعته السوداء شريط طويل.

أما الجياد الأربعة للعربة، فقد كانوا أيضاً من اللون الأسود من دون أية بقعة من أي لون آخر على أجسادهم.

كما أن هذه الجياد السوداء الأربعة، تتوافق باللون نفسه مع جياد مرافقي الدوق، بينما المرافقين أنفسهم، يرتدون بزات باللونين الأصفر والأسود مزررة بأزرار فضية نُقش عليها شعار الدوق.

وكأنما ذلك لا يكفي لجذب الأنظار، فقد بدا الدوق في

غاية الأناقة والوسامة بملابسه الفاخرة والمزخرفة، وقد وضع قرنفلة في عروة سترته.

قضى الدوق ليلة واحدة وهو في طريقه إلى باريس، عند صديق قديم كان من الممكن أن تجرح كرامته لو أن الدوق رفض ضيافته.

لقد عرف بقدوم الدوق بواسطة أحد أعوانه، فأرسل هذا الصديق خادمه ليدعوه إلى قصره، وها هو الآن يقف عند درجات المدخل الرئيسي عندما أطلّ الدوق بعربته الفخمة.

قال الصديق وهو يمد يده مصافحاً: «لقد جعلتني في غاية السعادة أيها الجريء، فمنذ وقت طويل الأمد لم تشرفني بحضورك الميمون.»

«أنا كذلك كنت أتوق إلى مثل هذه الزيارة.»

لاحظ الدوق عندما توجه إلى الفيكونت بهذا الكلام، أنه يبدو أكبر سنّاً وقد ازدادت التجاعيد في وجهه عن آخر مرة التقى به. لكن وبالرغم من فارق العشرين سنة بينه وبين الفيكونت، إلا أن الدوق يجد متعة في رفقته لشدة ذكائه وحكمته وكذلك من ظرفه.

حتى انه رفض اقتراح صديقه هبرت عندما طلب منه مرافقته، ذلك كي يتمكن من البقاء مع الفيكونت بعض الوقت بمفردهما. وكان قد قال له: «في الواقع يا هبرت، إنني أعرف بأنك مرتبط بالكثير من القضايا المهمة في لندن، كما انني أفضّل أن أقوم بمثل هذه الرحلة بمفردي. على أية حال، هذا لطف وكرم أخلاق منك، فشكراً لك.»

أجابه هبرت: «إنك وكما تعرف، قد أقوم بأي شيء تطلبه مني لأجلك.»

ابتسم الدوق وقال: «أنت صديق حقيقي، لكنني أعتقد أنه من الخطأ مواجهة مديرة المدرسة معاً، وقد يدفعها ذلك لأن ترفض لي طلب مقابلة فيليسا.»

فقال هبرت: «إذا كنت وقبل وفاة أدموند تعتبر نفسك المسؤول عنها، فأنت الآن وبصورة قاطعة، المسؤول الشرعي لها من بعد وفاته.»

وافقه الدوق قائلاً: «هذا صحيح، وبما انني المسؤول الوحيد عنها، يحق لي بامتيازات معينة.»

ضحك هبرت وقال: «أرى بأنك بدأت تشمّ رائحة مكر واحتيال تجري وتدور، وتفضل أن توطد طريقك بنفسك، لكن إذا احتجت لأية مساعدة، فأنت تعرف بأنني مستعد لأية خدمة لك.»

أجابه الدوق: «كن على ثقة بأنني سأفعل ذلك.»

إن السبب في سفره السريع هذا إلى باريس، شكوكه من الذي يجري ويدور في تلك المدرسة الداخلية، بينما وفي الوقت نفسه، يجد أن من واجبه الاستجابة إلى نداء مديرة المدرسة. إنه يجد أيضاً في سفره المفاجيء هذا، فرصة ممتازة للهرب من السيدة إيزوبل، التي من المؤكد مغتاظة الآن بمغادرته بريطانيا دون أن يراها أولاً.

على أية حال، هذا أمر لم يعد يهمه أو يكترث له، لأنه كان قد قرّر ألا يلبي أي دعوة من دعواتها، أو مقابلتها من جديد.

لم يكن السبب في ذلك، تعرفه على زوجة السفير التساوي ذات العينين الخضراوين، لكن إحساسه بأن السيدة إيزوبل، قد بدأت تتجاوز حدودها معه.

هناك شيء يكرهه الدوق بشدّة، وهو شعوره بأنه مجبر

ومدفوع للقيام بأي شيء لا يعجبه ولا يؤيده على الإطلاق.

أما السيدة إيزوبل، فقد كانت تحاول وبطريقة غير مباشرة، أن تتحكم به، لذا فقد قرّر بينه وبين نفسه، أنه مهما بلغ من جمال المرأة وجاذبيتها، فهو لن يسمح لها بأن تضايقه وتجبره على أن يقوم بشيء لا يرغبه.

لقد كتب لها قبل أن يسافر وهذه لياقة منه، رسالة يوجز لها فيها أنه مضطر للسفر إلى باريس لأجل شؤون عائلية، وطلب من السيد رمسغيل أن يرسل هذه الرسالة مع باقة من الأزهار المتنوعة. ثم صرفها من تفكيره قائلاً لنفسه بحزم، هذا فصل آخر أطويه من حياتي.

لقد قالت مرة إحدى السيدات بعد أن توقف الدوق عن تلبية دعواتها: «لقد اختفى كما تختفي السمكة في أعماق البحار.»

فضحكت إحدى صديقاتها ثم قالت: «لن تكوني يا عزيزتي الأولى ولا الأخيرة.»

«إنني أكرهه!»

ضحكت صديقتها مرة أخرى ثم قالت: «لو أشار لك باصبع يده، فإنك من المؤكد ستسامحينه وستسألينه من جديد ليتواجد في الحفلات التي تقيمينها.»

قالت بيأس: «نعم، سأفعل ذلك.»

إن الدوق وحسب خبرته الطويلة، يعرف أن السيدة إيزوبل ستفهم من تلك الرسالة الموجزة منه ومن باقة الأزهار، بأنها تلميح بعدم رغبته في رؤيتها من جديد.

كما أنه وفي رسالته لها لم يشر إلى أنهما قد يتقابلان من جديد، حتى ولم يخبرها بالسبب المباشر الذي دعاه إلى

مغادرة بريطانيا باختصار، لم يكن في الرسالة سوى التهذيب الرفيع الذي يتميز به الدوق في معاملاته مع الآخرين.

وفي وحدة غرفتها، صرخت السيدة إيزوبل بعدما استلمت الرسالة وباقة الأزهار: «أكرهه، أكرهه.»

لقد كانت بعيدة عن أفكار الدوق في هذه الأثناء، والذي كان يفكر به فقط بعد أن استيقظ في اليوم التالي، هو حسن ضيافة الفيكونت والعشاء الذي جمعهما الليلة الماضية بالأحاديث الممتعة والمشوّقة.

كان الفيكونت قد أطلعه على كل الأمور التي تجري في باريس بطريقة تشدّ المستمع إليه بقوة ويرغب بسماع المزيد من لسانه المعسول، لذا فقد انشرح صدر الدوق لأول مرة منذ فترة بعيدة.

كان الدوق قد نام في إحدى غرف القصر الرائعة الذي كان قد سلم باعجوبة من الثورة التي قامت، ومتّع نظره بالحدائق الغنّاءة التي أوجدت على عهد لويس الرابع عشر.

فسأله الفيكونت: «هل ستبقى في ضيافتي في طريق عودتك من باريس؟»

أجاب الدوق: «يسعدني أن أفعل ذلك، لكن ستكون بصحبتي تلك الفتاة.»

فقال الفيكونت مبتسماً: «أنت تعلم جيداً بأنني أرحب بها في ضيافتي أيضاً. على كلٍ، من تكون هذه الفتاة؟»

أجاب الدوق وهو يخفي أكثر الحقائق: «إنها ابنة أحد أبناء أعمامي، وكانت تتعلم في إحدى المدارس هنا، لكنني أعتقد أنه آن الأوان لها لتعود إلى بريطانيا.»

فقال الفيكونت: «سأنتظر وبشوق أن أقابلها، كما انني متأكد، وبما أنها قريبة منك، بأنها ستكون في غاية الجمال.»

لم يعارض الدوق قوله، مع أنه يذكر كم بدت شاحبة وأقرب إلى البشاعة منها إلى الجمال، عندما رآها لآخر مرة.

حتى انه بإمكانه أن يتذكر عيناها المنتفختان وأنفها الأحمر وشفتيها المضطربتين، وأكثر من أي شيء آخر، الدماء التي انسالت من كافة أنحاء جسدها بعد الضرب الشديد الذي تلقته من والدها.

لكنه وعندما وصل بتفكيره إلى الثروة الكبيرة التي ورثتها، فكر بسخرية، أنه لا يهم كيف تبدو طالما هي بهذا الوضع المادي الذي يثير الدهشة عموماً. إنها ستجد العديد من الرجال الذين هم على استعداد للزواج بها والتمتع بثروتها خاصة في الوقت الحاضر، حيث كان الكثير من العائلات الأرستقراطية ما يزالون يعانون من الحالة الاقتصادية بسبب الحرب الطويلة التي نشبت بين بريطانيا وفرنسا.

فقال الدوق بينه وبين نفسه: سأتأكد بنفسي من أمر واحد، وهو ألاّ تتزوج من رجل يسعى فقط وراء ثروتها، والذي قد يعاملها معاملة سيئة كما كان والدها يعاملها من قبل.

تذكر فجأة عندما اقترب من باريس، بما أن فيليسا قد أصبحت في الثامنة عشر من عمرها وبسن الزواج، يتوجب عليه أن يقدمها إلى الملكة لتقدم احتراماتها إليها وليتعرف عليها المجتمع الملكي.

ثم تابع يقول لنفسه: لقد كنت مهملاً بحقها. لقد كان يفترض برمسغيل أن يذكره بمسؤولياته تجاه هذه الفتاة.

تابع التفكير بأمرها وبأنه يتوجب عليه أن يجد لها وصيفة ترافقها أينما ذهبت لتسهر على راحتها، وكان متأكداً بأن ذلك ليس بالأمر العسير، خاصة أن هناك العديد ممن يرضيهم ويسعدهم خدمته.

وهذه الوصيفة مهما تطلبت من مصاريف في خدمة فيليسا، ستتمكن دائماً من إيجاد الوسائل اللازمة لإبعاد الطامعين بثروتها وتوقفهم عند حدهم.

سبعماية ألف جنيها! ثروة لا تصدق بالفعل، لكن من المحتمل أيضاً، أن أدموند كان قد بخل على نفسه وعلى من حوله ليجمع قيمة كبيرة كهذه.

ويعتقد الدوق أيضاً، أنه عاش حياة لا بزخ فيها ولا ترف، والحقيقة، كانت زوجته الأولى تتذمر من بخله الشديد، كما أنها عندما كانت تدعى إلى حفلة في أي قصر، لم تكن تملك ثوباً انيقاً لمثل مناسبة كهذه.

فقال الدوق بينه وبين نفسه: أمر أدموند غامض ومحيّر، لكن ما يهم الآن أكثر من أي شيء آخر، هو أن المال أصبح يخصّ فيليسا، وحسب ما تقوله مديرة المدرسة، هناك العديد من الرجال ممن عرفوا بثروتها حتى قبل أن أعرف أنا بالذات!

عندما وصل الدوق إلى باريس، وجد كما توقع تماماً، بأن كل شيء معدّ وجاهز له في منزله الكبير في الشانزيليزيه.

دخل إلى قاعة المنزل ليجد في انتظاره ثلاث رسائل، ففي باريس تنتقل الأخبار بسرعة كهبوب الريح.

فكر عندما ألقى نظرة سريعة على كل من هذه الرسائل الثلاث، بأن نوعية الخط التي استعملت على المغلفات، ليست بغريبة عنه.

استقبله رئيس الخدم باحترام شديد وأرشده إلى الصالة وهو بلباسه المفرط بالأناقة وعلى الطريقة الفرنسية هذه المرة، وطبعاً بناء على أوامر الدوق.

فقال رئيس الخدم بينما دخل آخر بصينية: «لقد طلبت لك عصير الأناناس يا سيدي، كما انني طلبت أن يهيء لك طعام العشاء في الساعة السابعة والنصف، إذا كان الوقت يناسبك بالطبع.»

أجاب الدوق: «هذا يناسبني تماماً.»

ثم تناول كوب العصير من الخادم وقال: «والآن يا بلانك، أخبرني بكل الأمور المسلية والجديدة في باريس، لقد سمعت من الفيكونت، بأن هناك مطربة عذبة الصوت في المسرح المتنوّع.»

استفاد الدوق من حديثه مع بلانك وأخذ منه معلومات قيمة.

كما أن بلانك الذي خدم الدوق لسنوات عديدة، كان يعلم جيداً ذوق الدوق. فهو لم يطلعه فقط على كل البرامج الترفيهية الأخيرة، بل قال له أيضاً بأن هناك دعوات عديدة تنتظره، من أشخاص يرون أنه قد يكون لهم الشرف الرفيع لو لبى دعواتهم تلك.

أصغى الدوق إلى كل ذلك، ثم اصرف رئيس الخدم، وبعد أن انتهى من تناول شرابه المنعش، توجّه إلى غرفته التي

صممت بتصميم رائع وفريد، حيث وجد خادمه الخاص قد رتّب أمتعته وملابسه داخل الخزانة.

علّق الدوق قائلاً: «ها قد عدت من جديد إلى باريس يا هيغنت.»

«أهلاً بك يا سيدي في منزلك، لقد مضى عامان منذ مجيئك الأخير إلى هنا.»

وافقه الدوق قائلاً: «حقاً! لكن لا تنسى بأن الحواجز منعتني عن ذلك بينما كانت الحروب على أشدّها في الشوارع، فاضطررت للسفر إلى روما.»

«لم أعتقد يوماً بأن لروما نفس شياكة وأناقة باريس.»

ابتسم الدوق، فملاحظات هيغنت كانت تفرحه دائماً لأنها صادقة عادة، كما أن رأيه الحر كان يتفق كل الاتفاق مع الدوق نفسه.

فقد كان الدوق يجد روما مخيبة للآمال، بالرغم من أنه يملك فيها فيللا تثير الاعجاب في النفوس.

فقال الدوق بينه وبين نفسه: من المؤكد أن باريس لن تخيب آمالي بها كعادتها.

نزل السلالم إلى الطابق الأسفل بملابس العشاء الخاصة، فلم يستطع الخدم إخفاء إعجابهم بمظهره الرائع والأنيق، بينما كان هو يفكر بما قد يكون بعد تناول طعام العشاء والبرنامج الواسع الذي سيقرره لسهرة الليلة.

هتفت إحدى الخادمات الجديدات بصوت منخفض: «يا له من رجل!»

فأجابها زوجها الذي يخدم معها في منزل الدوق: «ماذا تعنين بقولك، يا له من رجل!؟ ألست أنا رجلاً؟»

قالت زوجته مؤيدة: «بالطبع يا عزيزي، لكنك لست بقامته المديدة، وليس لك وجه السيد الدوق!»

استشاط الزوج غضباً وقال: «وجّهي نظراتك إلي وإلا فإنني سأعطيك درساً لن تنسيه طوال حياتك.»

وبعد أن انتهى الدوق من تناول طعام العشاء، خرج من منزله ليصعد إلى العربة التي كانت تنتظره أمام الباب.

* * *

توجّه الدوق في صباح اليوم التالي إلى المدرسة الداخلية سانت تريزا، وهو يفكر بالأمور التي تنتظره هناك.

كان قد استمتع بسهرته الليلة الماضية لدرجة أنها أنسته السبب الرئيسي الذي جاء من أجله إلى باريس.

إن العربة التي اعتاد أن يبقيها دائماً في باريس لخدمته كلما أحبّ المجيء إليها، كانت مثل بقية عرباته الفاخرة في بريطانيا، تلفت النظر وتبهر البصر بلمعانها الشديد. أكمل طريقه إلى بوا ومنها إلى الطريق التي تؤدي إلى فرنسا، ومنها مسافة ساعة من الوقت إلى قرية صغيرة فيها آثارات تعود إلى القرن السادس عشر، وعلى مقربة منها تقع المدرسة الداخلية لسانت تريزا.

كان لمدخل المدرسة باب خشبي ضخم في وسطه نافذة صغيرة ومن حوله سور عالي يحيط بحدائق المدرسة.

لقد وصلت أخبار قدوم الدوق إلى مديرة المدرسة قبل وصوله، لذا فعندما عرّف الحوذي عن صاحب العربة، فُتح الباب الخشبي على الفور بواسطة البواب نفسه.

لاحظ الدوق من نافذة العربة أن المدرسة وتصميم الباحة الخارجية لها يعود إلى القرن الخامس عشر، وقد زُرعت الحدائق بأجمل الأزهار المختلفة الأنواع.

لقد كان هناك أيضاً، أشجار ظليلة، وجد في أفيائها فتيات صغيرات تلعبن وتتحدثن بمرح، ففكر أن الجو بأكمله هنا، يساعد على الدرس والحفظ جيداً.

تذكر أن هذا كان مطلب فيليسا منذ البداية، وكان لها ما أرادت حقاً.

انتقلت به العربة إلى الباب الرئيسي للمدرسة فرحّبت به ناظرة كبيرة السن، فترجل الدوق من العربة ومشى مع الناظرة في ممر على جانبيه رايات مختلفة، إلى أن وصلا إلى جزء آخر من المبنى، اعتقد الدوق بأنه المكان الخاص لسكن مديرة المدرسة.

فتحت الناظرة التي كانت تمشي أمام الدوق لترشده إلى الطريق الصحيح الباب قائلة: «سيدي الدوق، تفضل إلى غرفة مكتب مديرة المدرسة.»

دخل الدوق غرفة أثّثت بذوق وعناية، فوقفت المديرة التي كانت تجلس وراء طاولة مكتبها على الفور مرحبة به.

لقد كانت كبيرة السن وقد دلّت ملامح وجهها انها كانت فيما مضى في غاية الجمال.

تذكر الدوق عندما وقع نظره عليها، من أن رمسغيل كان قد قال له مرة بأنها كانت تنتمي فيما مضى إلى أرقى وأنبل العائلات الفرنسية.

تذكر شيئاً لم يكن أكيداً منه، انها وعندما لم تسمح لها أسرتها بالزواج من الرجل الذي أرادته، دخلت هذه المدرسة

ونذرت نفسها إلى تعليم الفتيات، إلى أن أصبحت فيما بعد وبفضل نشاطها الكبير، المديرة العامة للمدرسة بأكملها.

مدّت المديرة يدها لتصافح الدوق قائلة: «هذا لطف كبير منك حين تستجيب إلى رسالتي التي بعثتها إليك أيها الدوق.»

كانت تجيد التكلم باللغة الإنكليزية، وبالرغم من إجادة الدوق للغة الفرنسية بطريقة مميزة، فقد أجابها بلغته هو قائلاً: «كنت أعتقد أيتها المديرة أنك قد تلومينني لعدم زيارتي للفتاة المسؤولة مني منذ زمن طويل.»

ابتسمت المديرة ابتسامة واهية، وكأنها اعتقدت بأن الدوق يحاول تبرير موقفه والاعتذار عن ذلك.

أشارت له إلى مقعد وثير قائلة: «تفضل بالجلوس أيها الدوق، فهناك الكثير من الأمور أريد التباحث فيها معك.»

جلس الدوق كما أشارت له مديرة المدرسة، بينما جلست هي في مقعد قريب منه.

بدأ الدوق الكلام قائلاً: «دعيني أقول لك أولاً، بأنني لم أكن على علم بوفاة والد فيليسا إلا عندما وصلتني رسالتك، وبأنها قد أصبحت وريثة ثرية.»

قالت مديرة المدرسة بنبرة لوم واستهجان في صوتها: «كما إنني أيضاً لم أبلغ بوفاة السيد دارل.»

أخذ الدوق يشرح الأمر قائلاً: «عندما أخذت فيليسا بعيداً عن والدها الذي وكما تعلمين يكون ابن عمي، حرّمت على نفسي أي اتصال به، وفي الواقع، لم أقابله منذ أن خرجت من منزله غاضباً ومعي ابنته التي أساء كل الإساءة إليها.»

قالت مديرة المدرسة: «عندما جاءت فيليسا إلينا، كانت

علامات الضرب الشديد، ما تزال ظاهرة بوضوح في جسدها، وكانت قد قالت لي بصراحة وصدق، بأنك أنت من أنقذ حياتها من والدها.»

تابع الدوق يشرح للمديرة: «لحسن حظها، انني اضطررت أن أمر بمنزل والدها بعد أن تعرضت إلى حادثة، وإلا، لا أدري، كما انني أكره أن أفكر بما قد كان ليحصل بفيليسا.»

أجابت المديرة: «أعتقد أنها كانت تشعر بالسعادة هنا في تلك السنوات القليلة التي مضت، كما أنها كانت تنكب على الدرس والمطالعة بجد ومثابرة. وأجدها أيها الدوق، والحق يقال، فتاة في غاية الذكاء والفطرة.»

«هذا ما كنت أعتقده أيضاً، فلقد كانت والدتها حاذقة وماهرة، ولم أفهم السبب الذي دعاها لأن تتزوج من ابن عمي.»

لكنه وبعد أن قال ما قاله، استدرك السبب الذي دعاها للزواج منه.

لقد كانت والدة فيليسا يتيمة الأبوين، وكانت عندما تعرف إليها أدموند تعيش عيشة كئيبة ويائسة لفقدانهما، واستطاع أن يقنعها بالزواج منه.

أما أقرباؤها، فقد كانوا سعداء جداً بالتحرّر منها وانعتاقها عنهم، لذا فهي وقبل أن تدرك بالذي يجري ويدور وجدت نفسها زوجة لرجل أناني جشع وعديم الأخلاق، ولم تتمكن من الهرب من قدرها هذا.

ثم قال الدوق بصوت عالٍ بعض الشيء: «أعتقد أنني كنت مهملاً عندما لم أتدبر خروج فيليسا قبلاً من المدرسة.»

أجابت مديرة المدرسة: «كما أنه حان لها الوقت لذلك، فمعظم الفتيات في سنها، قد تركن المدرسة مع بدايه هذا العام. هذا بالإضافة، وكما تعلم أيها الدوق، بأن فيليسا قد أصبحت في الثامنة عشر من عمرها الأسبوع الماضي.»

وكأنما الدوق لم يكن راغباً في أن يقرّ بخطأه، لذا فقد أومأ برأسه فقط، فتابعت المديرة تقول: «ما أفكر بالقيام به، هو أنني أقترح عليك بأن تغادر فيليسا المدرسة مع نهاية هذا الفصل، ذلك لأنني انزعجت من الذي حصل، ولهذا السبب كتبت لك تلك الرسالة أيها الدوق.»

فسألها الدوق: «ما الذي حصل؟»

أجابت المديرة: «في البداية، كان هناك عدد من الزائرين، يطلبون رؤية فيليسا، أو يريدون دعوتها إلى تناول طعام الغداء، وبما أن أموراً كهذه لم تحصل ولم يُوافق عليها في أي وقت من الأوقات، انتابتني دهشة شديدة وتحيّرت في أمري.»

فسألها الدوق: «هل رفضت طلباتهم تلك؟»

«بالطبع! إنني متشدّدة بأنظمة هذه المدرسة وأرفض رفضاً قاطعاً لتلميذاتي في أن يخرجن مع أي كان، إلا إذا كانوا يملكون إذناً خطّياً من أهاليهن أو من المسؤولين بالوصاية عليهن.»

عاد الدوق يسأل من جديد: «هل تحاولين القول أيتها المديرة، أن فيليسا لم تخرج من هذه المدرسة منذ أن دخلت إليها؟»

ابتسمت المديرة ثم قالت: «لا، إننا لسنا طغاة هنا، ولقد

ذهبت فيليسا إلى باريس وإلى عدة أماكن في الجوار، لكنها كانت دائماً برفقة معلمة وبعض التلميذات الأخريات.»

تابعت تقول وكأنها اعتقدت بأن الدوق ما زال يشعر بأنه تقييد تام على حرية فيليسا: «كما أنها كانت تذهب لحضور المسرحيات وحفلات الأوبرا التي اعتقد فقط بأنها قد تزيد من ثقافتهن وسعة اطلاعهن، كما أنها تذهب لمشاهدة المعارض والمتاحف.»

تمتم الدوق قائلاً: «إنني متأكد بأنها جميعها تدخل في المجالات التثقيفية والعلمية، لكن ما أريده أيتها المديرة، أن تتابعي إعلامي بالمزيد حول هؤلاء الزائرين الغرباء.»

فقالت المديرة: «لم يكن يسمح لهم برؤية فيليسا، لكنها وعندما كانت ذات يوم تتنزه خارجاً سيراً على الأقدام، رُميت في يدها رسالة، وتكرّر هذا الأمر مرة ثانية.»

«كانت تصلها رسائل؟»

«كانت في حالة من الدهشة الشديدة لهذه الرسائل، وقالت لي بكل صدق وأمانة، انه لا فكرة لها كيف وممن تصلها، وتتفاجىء بها في أي وقت.»

«هل قرأت هذه الرسائل؟»

أجابت المديرة: «كما هو الواجب وكما اللياقة تفرض، جاءت فيليسا بها إليّ على الفور، وها هي أيها الدوق أعامك كي تقرأها.»

أعطته اثنتان من هذه الرسائل، فأسرع الدوق وأخذها منها بلهفة.

حوّل نظره أولاً إلى توقيع صاحب الرسالة، فتعرّف إليه بسرعة. إنها من أحد أقربائه، وهو شاب طائش لم يكن يحترم نفسه ولا غيره، كما أنه كان قد خسر ماله وجزءاً كبيراً من أمواله بطرق ملتوية.

قرأ الدوق الرسالة التي جاء فيها كلاماً معسولاً من ذلك الشاب الذي يشتاق لرؤيتها بعد أن شاهدها تتنزه مع بعض الزميلات. ثم رجاها أن ترمي إليه برسالة من فوق السور من الناحية الجنوبية للحديقة، تقول له فيها، كيف يمكنهما أن يلتقيا.

ظهر الغضب الشديد في عيني الدوق، كما تبدلت ملامح وجهه عندما جاء على نهاية الرسالة.

فضّ بعد ذلك الرسالة الثانية، ونظر مرة أخرى إلى توقيع صاحبها، فاحتار لبضع لحظات وهو يفكر من يكون دنيس أرلين.

لكنه تذكر فجأة، أن واحدة من شقيقات والده كان لها ابنة تزوجت من رجل من عائلة أرلين، ولا بد أن دنيس أرلين صاحب الرسالة هو ابنهما.

وهذا ما جاء في الرسالة.

هناك أمر في غاية الأهمية أريد أن أطلعك عليه، أمر يخصك أنتِ، ويتوجب عليكِ أن تسمعيه، لأنه سيغيّر مجرى حياتك.

غداً، وعندما تذهبين في نزهتك اليومية، ستشاهدين متسولة قرب الشجرة الضخمة، إنها امرأة عجوز ستمدّ لك يدها مستعطية.

امنحيها قطعة نقدية، كذلك ورقة صغيرة تقولين لي

فيها، أين يمكنك أن تريني. سأنتظرك في أي مكان تشائين. وأريدك أن تعلمي، أنك لو لم تتعاوني معي، ستندمين حتى آخر يوم من حياتك.»

دنيس أرلين

علّق الدوق قائلاً: «انه حقاً لأمر شائن!»

قالت المديرة: «هذا ليس كل ما في الأمر، فيوم الأحد الماضي، ولأنني لم أرد لفيليسا أن تواجه تلك المتسولة، منعتها من الخروج من المدرسة للنزهة، لكن وعندما عادت المعلمات والتلميذات، قالت لي إحداهن شيئاً جعلني أنزعج منه بشدة.»

سألها الدوق: «ما كان ذلك الشيء؟»

«لقد كانت المتسولة هناك كما توقعت، كما وجدن عربة بداخلها ثلاثة رجال أخذوا ينظرون إلى التلميذات بطريقة يُشتبه بها.»

«هل تحاولين القول أيتها المديرة إن...»

قاطعته المديرة قائلة: «إنني لا أحاول ان أقول شيئاً أيها الدوق. إنني فقط أحاول أن أقول لك ما حدث، ولماذا كنت في غاية القلق، الأمر الذي دفعني لأن أبعث برسالة إلى السيد رمسغيل.»

أيّدها الدوق قائلاً: «لقد قمت بالعمل الصحيح، كما انني أؤكد لك، بأن شيئاً من هذا لن يحدث عندما تصبح فيليسا في عهدتي.»

ابتسمت المديرة وقالت: «هذا ما كنت آمل أن أسمعه منك أيها الدوق.»

وبدت راضية كل الرضى بما قاله مما جعل الدوق يبدو مندهشاً نوعاً ما.

«هناك أمر آخر أيها الدوق.»

«ما هو يا ترى؟»

تبدلت ملامح الدهشة عن الدوق ليحل مكانها حيرة وتفكير شديد، وخامره شعور بأن المديرة ما زالت تخفي شيئاً آخر مزعجاً.

لم يستطع أن يفكر بما قد يكون، خاصة وبعد أن عرف بأن بعضهم وهم من أقربائه حاولوا التعرض إلى فيليسا وإلى خطفها أيضاً.

قالت المديرة: «بما انك كنت تعتني بفيليسا منذ وقت طويل، وبما أنك تركتها في عهدتي لأتعامل معها بالطريقة الصحيحة، عليّ أن أخبرك بأمر قبل أن تترك فيليسا المدرسة، والذي أعتقد بأنه مهم لها.»

بدا الدوق في حيرة أكبر، وقال: «ماذا هناك أيتها المديرة؟ هل تشكو الفتاة من شيء ما؟»

خامره شعور بأن المديرة تجد صعوبة في أن تصيغ الكلمات المناسبة.

بعدئذ، وكأنها أدركت أن الإجابة بصراحة هي الحل الوحيد، قالت بهدوء: «إن فيليسا تخشى جانب الرجال من بعد ما قاسته وتحملته من عذاب مع والدها.»

خيّم صمت لبضعة لحظات قبل أن يردّد الدوق ما قالته المديرة: «تخشى جانب الرجال؟ من أية ناحية؟»

«تراها تنكمش وتجفل من أي رجل قد تقابله، وترفض أن تتكلم معه أو أن تقترب منه.»

انزعج الدوق من هذا الكلام وقال: «إنه تصرف غريب لفتاة في سنها.»

ثم تساءل في نفسه فيما لو سمع يوماً بامرأة، خاصة إذا كانت في سن مماثل لفيليسا، تخشى الرجال وتهرب من طريقهم.

فتابعت تقول المديرة: «عندما جاءت إلى هذه المدرسة، فهمت بعد كل الذي عانته، بأنها ستبقى لبعض الوقت تقيس وتشبّه الرجال كافة بوالدها، لكنني كنت أعتقد دائماً أنها مرحلة وستتخطاها كلما كبرت أكثر في السن.»

قال الدوق: «لكن ما أفهمه منك، أنها ما تزال خائفة.»

أجابت المديرة: «آسفة لكنها الحقيقة، وبالطبع أفهم أيها الدوق، أن العيش هنا في مؤسسة نسائية حيث من النادر جداً أن نرى رجلاً، لم تكن بالطريقة الأفضل لتحرّر فيليسا من معاناتها، إنما الذي أتوقعه وبما انها ستكون في رعايتك وحمايتك، أن تعود إلى طبيعتها عندما تنخرط بالحياة الاجتماعية.»

أجاب الدوق: «هذا ما أريد أن أقوم به بالتأكيد، لكن الأمر الذي يحيرني، هو ما قد يسعني أن أقوم به لأجعلها تدرك وتعي أنه ومن وجهة نظر أي فتاة في هذه الأيام، الرجل مهم للغاية، خاصة عندما أحاول أن أفتش لها عن زوج.»

«هذا ما آمل أن تقوم به أيها الدوق. لقد قالت فيليسا مرة بأنها تريد أن تصبح معلمة وأن تبقى في هذه المدرسة، لكن والحق يُقال، إنها حياة لا تلائمها بتاتاً.»

سألها الدوق بفضول: «ولما لا؟»

أجابت المديرة: «لسبب واحد، إنها حادة الذكاء. وعندما

تراها، ستفهم لما لا تلائمها الحياة هنا، ومن الأفضل لها، مستقبل آخر مع زوج وأولاد.»

لم يتفوّه الدوق بأية كلمة، ثم وقفت المديرة تتابع قائلة: «سأرسل بطلب فيليسا إليك الآن، ومن ثمّ سأتأكد بنفسي من أن أمتعتها قد نُقلت إلى عربتك.»

وقف الدوق قائلاً: «شكراً لك أيتها المديرة وأودّ أن أشكرك لعنايتك بفيليسا طوال الخمسة أعوام المنصرمة. كما انني أرغب بالتبرع مقابل صنيعك الكريم هذا واترك لكِ الحرية في اختيار طريقة التبرع هذه.»

وبينما كان يتكلم، أخرج ظرفاً من جيب سرواله ووضعه على طاولة المكتب.

«هذا كرم ونبل أخلاق منك أيها الدوق، لطالما سمعت بكرمك ونبلك على لسان الكثير من الناس، وإنني أكيدة، بأنك ستكافأ على أعمالك الخيرية هذه في يوم من الأيام.»

شعر الدوق بسعادة عامرة في داخله من مديحها هذا، ومن سمعته الحسنة في باريس.

لقد كان أمراً حقيقياً ما قالته المديرة، وكما أنه كان كريماً جداً عندما يعرف أن الأمر ضروري، إنما كان سعيداً أكثر لأجل فيليسا بما أن المديرة تأخذ فكرة جيدة بشأنه.

فتح لها الباب وخرجت منه، ثم أخذ ينتظر قدوم فيليسا الذي قد يستغرق بعض الوقت وذلك قياساً لكبر هذه المدرسة الداخلية.

ثم حمل الرسالتين اللتين كانا قد وضعهما على طاولة صغيرة إلى جانب مقعده وتمتم بسخط: «كيف يجرؤ رونالد دارل على كتابة مثل هذه الرسالة!»

لقد كان رونالد دارل شاباً طائشاً يكره الدوق منذ التقى به لأول مرة. والآن وجده كريها أكثر لأنه استغلّ القرابة التي تربطه به من أجل اطماعه البشعة.

ثم تمتم واعداً بسخط وهنا يعني بكلامه أيضاً دنيس أرلين: سأعطي ذلك الشاب شيئاً ليشغل رأسه به في لقائنا التالي!

إنه لأمر مشين وحقير حين يتودّد إلى فتاة في المدرسة ليلتقي بها. تذكر فجأة بينما لم يكن متأكداً من ذلك، بأن أرلين كان في الخامسة والثلاثين من عمره ولا منفعة مرجوة منه، وأيضاً لا يملك قرشاً واحداً، عدا تلك التي كان يبتزها وينتزعها من عائلته التي عانت منه الأمرين لفترة طويلة.

وعاد بأفكاره إلى فيليسا التي كانت المديرة تخشى مصيرها وحياتها في المستقبل بعد أن تخرج من هذه المدرسة.

فقال بينه وبين نفسه: سآخذ هذه الفتاة إلى بريطانيا، وسأجد لها وصيفة جيدة لتعتني بها خير عناية، وعندها فقط نتخلص من هذه التفاهات!

فُتح عند ذلك الباب بهدوء، وتردّدت الفتاة قليلاً قبل أن تدخل إلى الغرفة.

لم يصدّق الدوق للوهلة الأولى بأنها هي فيليسا.

فقد كانت له ذكرى كاملة عن تلك الفتاة البائسة التي انتشلها من بين مخالب والدها القاسي، ولم تكن صورتها في مخيلته، سوى ما كانت عليه في ذلك الوقت.

أما الفتاة التي كانت تقف أمامه الآن بهدوء، فتختلف كل

الاختلاف عن السابقة، حتى أنه لم يصدق بأنها هي نفسها.

كانت ما تزال صغيرة، لكن بالطبع أطول قامة من ذي قبل، كما أن قوامها كان لا يزال نحيفاً لكن ليس على نحو طفلة بل على نحو امرأة شابة.

لم يكن وجهها كما كان يتوقعه الدوق، حتى انه اعتقد بأنه يختلف عن وجه أية امرأة شابة أخرى كان قد شاهدها من قبل.

كانت عيناها واسعتين وليست زرقاوتين كما كان يتوقع بسبب شعرها الأشقر، بل رماديتين تومضان بوميض ذهبي يشبه شعرها الذي ربطته إلى الوراء بشريطة. وأنفها الذي كان عندما شاهدها لآخر مرة أحمر اللون من شدة البكاء، أصبح الآن مستقيماً لا تشوبه شائبة.

لقد بدت رائعة، بل رائعة جداً!

فهم الدوق لماذا اعتقدت المديرة بأنها قد تكون جريمة، مع أنها لم تستعمل هذه الكلمة بالتحديد، إذا أقفل على فيليسا داخل جدران هذه المدرسة الداخلية طوال حياتها.

قطعت الصمت هامسة بصوت منخفض، لكن الدوق تمكن من أن يسمع الكلمات التي نطقت بها: «أنت... أنت هنا!»

أجابها: «نعم، أنا هنا.»

«آه، إنني سعيدة... سعيدة جداً!»

تقدمت نحوه وهي تتابع قائلة: «قالت لي المديرة بأنها كتبت إليك، فصليت... صليت كثيراً كي تجيب على تلك الرسالة... لكن حتى وعندما أخبروني بأنك آتٍ، لم أصدق.»

فقال الدوق: «لكنني أتيت، وأتيت لأحلَ كل مشاكلك، فلا داعي لكِ وللمديرة لأن تقلقا بعد اليوم.»

قالت فيليسا: «لقد كان الأمر مقلقاً، ولا أفهم... لماذا هؤلاء الرجال... كتبوا لي تلك الرسائل... وبتلك الطريقة الغريبة.»

فكر الدوق بينه وبين نفسه، إذا كانوا حقاً قد شاهدوها، فلهم عند ذلك كل الحق لكي يراسلوها، حتى لو لم يكونوا طامعين بثروتها.

ثم قال بصوت عالٍ: «أعتقد أن المديرة اطلعتك بأمر وفاة والدك، وبالميراث الكبير الذي تركه لك.»

اتسعت عينا فيليسا بدهشة ثم قالت: «عرفت بأمر وفاة والدي منذ يومين فقط عندما استلمنا رسالة من السيد رمسغيل يقول فيها بأنك آتٍ إلى باريس، لكنني لم أعرف بأن والدي ترك لي شيئاً.»

وقبل أن يتمكن الدوق من قول أي شيء، تابعت تقول بابتسامة مشعة: «إنني سعيدة... حقاً سعيدة! كنت أخشى أن أطلب منك... بعض المال، واعتقدت أن في ذلك أمر سيء.»

سألها الدوق بنبرة عذبة: «وما الذي يسيء بذلك؟»

أجابت فيليسا: «لقد صرفت الكثير من الأموال علي لغاية الآن، وأشعر بالحرج من تلك المبالغ التي كانت تُطلب منك مع نهاية كل فصل، لكن المديرة أصرّت أن أقوم بكافة النشاطات المدرسية تماماً مثل زميلاتي.»

قال الدوق: «لقد انتهيت من دروسك كافة الآن يا فيليسا، وبما أنك أصبحت في الثامنة عشر من عمرك، آن الأوان لك لأن تخرجي من هذا المكان إلى العالم الخارجي. لذا، فإذا كنت مستعدة للخروج، اقترح بأن نؤجل الحديث حول مستقبلك إلى أن نصل إلى منزلي في باريس.»

«هل تملك منزلاً هنا؟»

«نعم، ومنزل جميل في الشانزليزيه.»

«يا ليتني كنت أعلم بذلك!»

«لماذا؟»

«كنت تفرجت عليه كلما ذهبنا إلى الشانزليزيه، ربما لم تكن تفكر بي طوال تلك المدة، لكنني كنت أفكر بك دائماً، وكنت أدعو لك بالتوفيق والهناء لأنك أنجدتني.»

بلعت بريقها ثم تابعت: «كما انني لن أنسى أبداً ما كان شعوري آنذاك، عندما حملتني وأبعدتني عن والدي الذي كان يضربني ضرباً مبرحاً.»

قال الدوق بلطف: «انسي كل هذه الأمور يا فيليسا، وهيا بنا. إنك ستبدأين حياة جديدة وأنا متأكد من أنك ستجدينها مثيرة ومشوّقة.»

توجهت فيليسا نحو الباب، لتتوقف فجأة مترددة، ثم التفتت ناحيته، فأدرك الدوق بأن هناك شيئاً يشغل بالها.

سألها: «ماذا هناك؟»

فبادلته السؤال بسؤال آخر: «هل... هل سأكون معك... لو انني خرجت من هنا؟»

أكّد الدوق لها قائلاً: «ستكونين معي، وبما انني بمفردي في باريس، لن يزعج أحد حديثنا حول مستقبلك.»

فقالت بابتهاج: «سأكون... معك! هذا أمر مفرح جداً!»

وابتسمت له قبل أن تخرج، فنظر إليها وهي تبتعد عنه وكأنه لا يصدق بأنها حقيقة.

ثم خامره شعور بأن المشاكل من رعاية فيليسا ستبدأ منذ الآن.

الفصل الثالث

قال الدوق وهما في طريقهما إلى باريس: «يجب أن نفكر بأمرك جيداً.»

سألته فيليسا: «في أي أمر؟»

«خروجك من اليرقة لتصحبي تلك الفراشة الجميلة.»

ضحكت فيليسا ثم قالت: «أهكذا سأصبح؟»

«أمل ذلك، كما أيضاً واحدة من تلك الفراشات النادرة.»

«ما الذي يدعوك لقول مثل هذا الكلام؟»

فكّر الدوق للحظات قليلة قبل أن يجيب عن سؤالها قائلاً: «أعتقد أنه ربما يجب أن أبدأ يا فيليسا في شرحي، وبأن المركز الهام في عالم المجتمع ينتظرك.»

تمتمت فيليسا وقد بدت ملامح الحيرة واضحة على وجهها: «لا يمكنني أن أفكر في سبب ذلك، سوى لأنني فقط تصلني بك قرابة عائلية.»

فقال الدوق في حزم: «إنني مسؤول عنك، كما أنك أيضاً وريثة ذات شأن.»

وكأنما فيليسا ما زالت لا تصدّق بأنها أصبحت ثرية، قالت بصوت منخفض: «هل أنت متأكد من أن والدي ترك لي ثروة؟ لقد كان يقول دائماً بأنه لا يملك شيئاً.»

أجاب الدوق: «أعتقد أن والدك كان رجلاً بخيلاً، لكنني سمعت أيضاً بأنه ورث من أحد أقربائه، فتضاعفت هذه القيمة مع مرور الزمن، وبعد ذلك، ترك كل ما يملكه لك.»

«كل ما يملكه؟»

«نعم، كل شيء!»

«لكن... هناك زوجته...»

«لقد تشاجر والدك معها، وتركت المنزل منذ سنة تقريباً.»

تنهدت فيليسا وقالت: «لا بدّ وانها كانت يائسة وغير سعيدة.»

فقال الدوق: «لماذا تظهرين لها هذا الاهتمام!؟ إنها لم تكلّف نفسها لمنعه في أن يعاملك تلك المعاملة السيئة.»

أجابت فيليسا: «لم يكن يحسن معاملتها هي الأخرى، إنما لم يكن يضربها مثلي، لكنها كانت تبكي كثيراً وفي كل الأوقات.»

قال الدوق بحدة: «أعتقد أنه أفضل ما يمكنك أن تفعليه، هو أن ترمي ذلك الجزء من حياتك جانباً وكأنه لم يكن، خاصة وأن كل شيء في المستقبل سيكون مفروشاً أمامك بالزهور، مع انني أعتقد بأننا نأمل كثيراً بالغد.»

ضحكت فيليسا من جديد ثم قالت: «بل أكثر من الكثير! لقد قرأت الكثير في كتب التاريخ، وتبيّن لي أن العديد من الأشخاص كانوا يعانون من مآسٍ كثيرة في وقت من أوقات حياتهم السابقة، بينما ومن ناحية أخرى، يبدو أن الأغريق لم يكن يمتعهم أي شيء آخر عدا التعاسة.»

أجابها الدوق: «يسرني أن تكوني قد اتخذت لنفسك وجهة النظر هذه من الحياة. كما انني أجدها دائماً الحل الجذري للقضاء على المعاناة.»

فكرت فيليسا بكلامه قبل أن تقول: «هل تعني بكلامك، أنه

إذا شعر المرء بخيبة أمل أو أنه خسر أية معركة في حياته، أن يرميها وراء ظهره وينسى أمرها؟»

وافق الدوق على كلامها في الحال قائلاً: «تماماً! ولهذا السبب أريدك أن تنسي كل شيء، وأعني بكل شيء، تلك الأمور التي سببت لك التعاسة واليأس قبل أن آخذك لأدخلك في مدرسة داخلية.»

فقالت فيليسا بنبرة لطيفة: «لن أنسى أبداً... بأنك أنجدتني. لقد دعوت لك بالتوفيق كثيراً.»

ابتسم الدوق لكلامها لكنه لم يعلّق عليه بكلمة واحدة.

تابعت فيليسا: «كيف لي أن أنسى بأنك أنجدتني من ذلك التنين؟»

فقال الدوق بسخرية: «لا أعتقد أن في ذلك احترام عندما تشبهين والدك بالتنين!»

أجابت فيليسا: «أعتقد أن للجميع تنين في حياتهم، لكنك كنت بالنسبة لي ذلك الفارس المغوار الذي خلصني عندما كنت... في تلك الحالة الشديدة من اليأس... لدرجة انني كنت أطلب الموت في كل لحظة!»

تكلمت بطريقة مضطربة، لكن الدوق لم يكن يريد أن تحفظ له كل هذا الجميل. فقال لها: «اضطراري للجوء إلى منزل والدك لم يكن سوى من حسن حظك، أو لنقل أن الحظ كان إلى جانبك. بالطبع يسعدني أن تهلّلي لي، لكنك قد تصدمين عندما تجدين أن القلة القليلة من الناس يعتقدون بأنني أستحق ذلك.»

«ينادونك باسم الجريء!»

فسألها الدوق: «كيف تعرفين ذلك؟»

«لقد سمعت من زميلاتي في المدرسة الشيء الكثير عنك ومن أفواه أولياء أمرهم، خاصة من الآباء الذين يشتركون في سباقات الخيل.»

قال الدوق: «في هذه الحالة، لا عجب أن يعرفن الاسم الثاني لي.»

فتابعت فيليسا: «كما انهن شعرن بالغيرة مني لأنه تصلني بك قرابة، وبما انني أرغب بسماع أخبارك، كانت التلميذات تسألن أمهاتهن عنك، وينقلن لي كل شيء بعد ذلك.»

سألها الدوق: «وماذا سمعت عني؟»

أجابت فيليسا: «سمعت بأنك تملك أفضل جياد، وبأنك رجل رياضي، كما أنك أفضل رامي عندما تشترك في أية مبارزة.»

دهش الدوق وقال: «لكن المبارزة ممنوعة.»

فقالت فيليسا مبتسمة: «عندما تكون المسألة مسألة شرف، لا أحد يقلق بشأن القانون، لقد تحمست جداً عندما سمعت أنك جرحت كونت فيرسون.»

سألها الدوق بدهشة: «كيف سمعت عن ذلك أيضاً؟»

إن المبارزة بينه وبين كونت فيرسون سببت الشيء الكثير من الانتقادات، والخطأ عائد له، لأنه سمح للكونت أن يتحدّاه، وذلك كله بسبب سوء تفاهم حصل مع الاثنين.

لذا فقد جرح الكونت في يده وسبّب له هذاالجرح غرغرينة، اضطر الأطباء لقطعها، فانقسمت باريس إلى قسمين مع وضدّ الدوق، ثم ومع مرور الوقت توقفت الأقاويل وماتت هذه الحادثة في اذهان الناس.

أجابت فيليسا على سؤاله: «إن ابنة شقيقة الكونت تتعلم في تلك المدرسة الداخلية، ولقد قالت لي أيضاً بأن خالها رجل غريب الأطوار، ويمكنها أن تفهم لماذا تميل زوجته إليك.»

تضايق الدوق من هذا الحديث الذي لم يكن يرغب أن يخوضه مع فتاة في سنها، لذا فقد قال: «ما رأيك لو تنسي كل شيء يتعلق بالكونت، لتخبريني بالأشياء الأخرى التي سمعتها. يدهشني كيف أن المديرة تسمح لثرثرة مثل هذه داخل جدران مدرستها.»

ضحكت فيليسا وقالت: «لا أعتقد أنه من الممكن لأي كان أن يوقفنا عن الكلام، لكنني أكيدة أنك فهمت بأنني أردت فقط أن أسمع أخبارك، لأنك وبعد وفاة والدتي، كنت الشخص الوحيد الكريم والطيب معي.»

أدرك الدوق من طريقة كلام فيليسا بأنها تعتبره شخصاً مهماً في حياتها، لكنه وفي الوقت ذاته، قال بينه وبين نفسه، إنه يجب ألا تثابر الفتاة في المزايدة بمشاعرها تجاهه. فحاول أن يغيّر دفة الحديث بقوله: «إنني متأكد بأنك سمعت بفوزي بعدد لا يستهان به من سباقات الخيل.»

قالت فيليسا: «لقد كانت بأكملها مثيرة وحماسية، كما أن التلميذات كن يطلبن من أولياء أمورهن أن يرسلوا لهن قصاصات من الجرائد تشرح فيها كيف تمكنت جيادك من الفوز، وأنا بدوري احتفظت بهذه القصاصات كافة.»

لم تلاحظ الدهشة التي أطلّت من عيني الدوق، وتابعت

تقول: «لكنني أقول ان الأشياء الأكثر أهمية بالنسبة إلي، كانت تلك التي سمعتها من صديقاتي وليس تلك التي قرأتها عنك.»

فقال الدوق معترضاً: «أعتقد بأنك تجعلينني أشعر بعدم الراحة من كلامك هذا، كما أنك سرعان ما ستجدين في حياتك أشياء أفضل لتهتمي بها ولتلهي نفسك فيها.»

فقالت فيليسا: «أفضل أن أسمع كل شيء عنك. والآن وبما انني سأكون معك، سأدوّن كل هذه الأشياء في دفتر وأحتفظ بها إلى أن تموت، فأنشرها بعد ذلك ليتعرف كل سلالة آل دارل القادمة، كم كنت رجلاً عظيماً.»

«هناك العدد الكافي من الكتب التاريخية التي تحكي عن العائلة، وستجدينها في مكتبة القصر.»

صمتت فيليسا للحظات قليلة، ثم قالت مبتسمة: «عندما كنت في سن العاشرة، ذهبت إلى إحدى حفلات الأعياد التي تُقام في الهواء الطلق، وسمعتك تلقي خطاباً ففكرت كم تبدو رائعاً، وبأن القصر الكبير الذي تعيش فيه هو المكان الملائم لك حقاً.»

ابتسم الدوق، وتابعت هي تقول: «عندما كان والديّ يذهبان أحياناً إلى حفلات تقام في قصرك، كنت أشعر بالغيرة والحسد منهما وتمنيت لو أنني أتمكن من حضورها في يوم من الأيام.»

فقال الدوق: «وها قد تحققت أمنيتك، فأنت ستعيشين في القصر من الآن فصاعداً، عدا بالطبع عندما نضطر للمكوث في لندن.»

سألته فيليسا: «هل يجب أن تمكث في لندن كثيراً؟»

أجاب الدوق: «نعم، لكنك ستتمعتين بالحفلات الباقية من هذا الفصل، إلى أن يأتي فصل الشتاء حيث ستجدين الحفلات أكثر متعة وتسلية من أي فصل آخر.»

لم تجب فيليسا، فتابع الدوق: «لكن أولاً، وكما قلت لك سابقاً، يجب أن أدرس وإياك كل شيء يخصّ مستقبلك خطوة خطوة. أما الشيء الأهم في الوقت الحالي، هو شراء بعض الملابس لك.»

هتفت فيليسا بابتهاج، ثم سألت: «ملابس جميلة وعلى الطراز الحديث؟»

أجاب: «بالطبع، فليس من المقبول أن تظهري أمام المجتمع بهذا الشكل الذي أنت عليه الآن.»

وأخذ ينظر إلى الملابس البسيطة التي ترتديها والتي تناسب فقط فتاة كانت في المدرسة، ولا تتناسب مع وريثة ثرية ستدخل المجتمع الراقي بين لحظة وأخرى.

مع أنه، وفي الوقت نفسه، كان يدرك أن اللون الأزرق الداكن من القماش يبرز صفاء بشرتها، كما أن القبعة المزركشة بشرائطها الزرقاء، كانت تليق بها وبعينيها الواسعتين. لذا فمن المؤكد وعندما ترتدي الملابس الحديثة الطراز، ستبدو في غاية من الروعة والجمال.

قال: «إننا في المكان المناسب لشراء مجموعة من الملابس الحديثة لك، والتي ستحسدك عليها ليس فقط صديقاتك في المدرسة، بل السيدات اللواتي أكبر سنّاً منك واللواتي يقضين معظم أوقاتهن في الأسواق من أجل انتقاء ملابسهن.»

ضحكت فيليسا وقالت: «نعم أعرف. كما أن صديقاتي

كن يخبرنني دائماً، كيف تقضي أمهاتهن ساعتين أو أكثر في اختيار ملابس الصباح، كما أنهن واستعداداً للسهرة يمضين كل ساعات بعد الظهر لأجل ذلك. لكنني لا أعتقد بأنني قد أضيّع أيامي على هذا النحو.»

فسألها الدوق بنبرة لاهية: «إذاً، كيف ستمضين أيامك؟»

أجابت فيليسا: «أريد أن أمضيها معك، وأن أمتطي الجياد، وأن أشاهد بالطبع جيادك وهي تفوز في كل سباق. وأن أذهب لمشاهدة عروض الباليه، أو هل هناك من مانع في ذلك؟»

ونظرت إليه من طرف عينيها لترى إذا كان كلامها سبّب له أية صدمة، لكنها وجدته يبتسم قائلاً: «أعتقد أن كل ما تطلبينه سيكون ضمن برنامج عملك، لكنك لم تخبريني أمراً هاماً.»

«ما عساه يكون؟»

«من الذي سيرافقك في كل هذه المناسبات؟»

خيّم صمت وجيز، وكأنما فيليسا لم تكن متأكدة ما كان يعنيه بكلامه، لكنها قالت بعد ذلك: «هل يمكنني أن أرافقك إلى سباقات الخيل؟»

أجابها الدوق: «بالطبع، فهناك دائماً حفلات تلي السباقات الكبيرة.»

خامره شعور بأن فيليسا كانت على وشك أن تقول بأنها تفضل أن تبقى معه، لكنها تراجعت عن ذلك كي لا يعتقد بأنها تحاول إحراجه.

وفكر بينه وبين نفسه: إنها تريد أن تبقى معي في الوقت الحاضر، لأنها لا تعرف أحداً، لكن متى تعرفت إلى

فتيات في سنها، لن تجد متعة في البقاء مع رجل في سني.»

قال لنفسه أيضاً، انه وخلال السنوات الطوال التي أمضتها في المدرسة الداخلية، خاصة وأنه لم يكن لها عائلة تزورها، كان من الطبيعي أن تتجه أفكارها إليه، ذلك وببساطة، لأنه أنقذها من والدها.

لذا، عليه أن يعالج هذا الوضع بانتباه معتمداً على خبراته الواسعة في هذا المجال.

ابتهجت نفس فيليسا عندما وصلا إلى منزله في الشانزليزيه وقالت: «لو كنت أعرف بأنك تملك منزلاً في باريس، لكنت تخيلته بهذه الصورة.»

دخلت المنزل وأخذت تتنقل من غرفة إلى أخرى وتظهر إعجابها الشديد بكل لوحة تشاهدها، وتهتف للفنانين بوشير، فراغونارد ولونين الذين رسموا بريشتهم أجمل الرسومات التشكيلية.

فقال الدوق معلّقاً: «أرى بأنك أعجبت بلوحاتي.»

أجابت فيليسا: «لقد درست عنها في اللوفر، لأنني عرفت بأنك تملك مجموعة عظيمة في قصرك، كما أن إحدى صديقاتي وهي إيطالية الجنسية، قالت لي بأنك تملك فيللا في روما.»

فتساءل الدوق قائلاً: «لكن من المؤكد من أنك لا تعرفين ما هي اللوحات التي أملكها!»

أجابت فيليسا ببساطة: «طبعاً لا، لكن أرجو ألاّ تنزعج مني لعدم معرفتي الجيدة باللوحات خاصة القديمة منها.»

مرة أخرى، وجد الدوق أن الحديث يعود إليه فقال بسرعة: «سأقول لسكرتيري أن يرسل بطلب أفضل مصممي

الأزياء من رو دولابيه. لكن وقبل أن يصلوا إلينا، هل تشاركينني بشرب عصير منعش؟»

أعطى الدوق أوامره، وعندما جيء بالعصير إلى الصالة، وجد فيليسا تتناول الكوب وهي تنظر إليه بعينين مشعتين.

قالت فيليسا: «بما أن هذه المناسبة، مناسبة خاصة جداً، أعتقد أن أغلب الناس يتبادلون الأنخاب، ولقد قرأت ذلك في الكتب.»

أجابها الدوق: «إنك محقة جداً، كما وبالطبع إنها مناسبة خاصة حين تتركين المدرسة، لذا سأشرب نخبك الآن.»

رفع الكوب وتابع يقول: «إلى فيليسا التي ستخطو خطواتها الأولى في العالم الجديد الذي من المؤكد ستجد فيه أمانيها وأحلامها.»

شعر بكلماته وكأن فيها شيئاً من الشاعرية، لكنها وفي الوقت نفسه، كانت ما ترغب في سماعه أي فتاة في مثل سنها. لذا، وبعد أن رأى ملامح وجهها المتأثرة بكلامه، أدرك بأنه على حق.

ثم رفعت الكوب هي الأخرى: «اشرب نخبك، وأتمنى لك أن تستمر في قتل أي تنين قد يواجهك!»

ضحك الدوق وقال: «يا لها من مهمة رائعة حملتني إياها، لكنني بالطبع سأقوم بقصارى جهدي.»

لقد تكلم بسخرية لأنه كان يدرك جيداً بأن فيليسا كانت تتكلم بصدق نابع من قلبها.

أقبل الخادم عليهما معلناً بأن طعام الغداء أصبح جاهزاً، ولقد طلبه الدوق في وقت أبكر من العادة بسبب توقع وصول أحد مصممي الأزياء لاحقاً.

قال الدوق: «ما سنقوم به الآن، هو أن نشتري كل شيء جاهز ويمكن اصلاحه بسرعة، ثم نرسل بطلب أجمل فساتين السهرة التي بإمكانها أن تُدهش باريس أولاً، ومن ثم لندن.»

فسألت فيليسا: «هذا... هذا يرضيك؟»

أجاب الدوق: «بالطبع، لأنني لا أتمنى لمن هي في حميتي الذل والمهانة!»

قالت فيليسا بتواضع: «سأحاول أن أحقق أمنيتك وأن أنجح. لكن وكما تعلم، لم أذهب إلى منزلي خلال الإجازات وبقيت بين جدران المدرسة الداخلية، قد أبدو جاهلة وعديمة الخبرة في المجتمعات.»

فقال الدوق: «لا أعتقد ذلك، ولكنك إذا أصغيت إلى ما يقوله الناس، ستجدين وبذكائك المعهود، أنه من السهل عليك أن تنضمي إلى هذه المجتمعات.»

فتوسلت فيليسا إليه قائلة: «أرجوك، هل ستساعدني؟ وهل ستنبّهني إذا وقعت في أي خطأ؟»

أجاب الدوق: «من المؤكد بأنني سأفعل ذلك، لكن وفي الوقت نفسه يا فيليسا، يجب أن تستعملي ذكاءك. لقد أخبرتني مديرة المدرسة كم أنت ذكية وبارعة، فلو أنك نظرت بعينيك وسمعت بأذنيك، فلن تقعي في أي خطأ.»

أجابت فيليسا: «إنني أكيدة من أن ما تقترحه علي لهو منطقي جداً. لكن إذا نظرت بعيني وسمعت بأذني كما تقول لي، أعتقد بأنني مجبرة على القيام بشيء آخر أيضاً.»

فسألها الدوق: «وما عساه يكون؟»

«أن أفهم بقلبي.»

دهش الدوق، خاصة وأنه يعلم أن قليلاً من النساء قد يقلن ذلك، ولو فعلن، فمن المؤكد أنهن لا يدركن أبعادها. فأدرك عندئذ، أن قلب فيليسا كان عضواً مهماً لها في تكوينه. لكنه وفي الوقت نفسه، أعتقد بأنه قد يكون شيئاً خطيراً، فأجاب بخفة: «من الطبيعي جداً، أن يكون قلبك عنصراً مهماً، خاصة لمن قد تهبينه.»

فقالت فيليسا: «يبدو هذا مثل شيء قرأته في كتاب، لكنني كنت أعتقد دائماً، أنه لا يمكن لأحد أن يهب قلبه لأي كان.»

سألها الدوق: «ولما لا؟»

«لأنك إذا كنت تحب أحداً، تجد أنه من الصعوبة عليك أن تحتفظ به من جديد، عندها والذي من المؤكد حدوثه، أنهم سيأخذون قلبك منك عنوة، رضيت أم لم تكن راضياً.»

فقال الدوق: «اؤكد لك بأن ما أسمعه منك لم أسمعه من أحد قبلك، لكن ربما تكونين على حق. لكن الذي تحاولين قوله، أنك لو أحببت أحدهم، سيحدث ذلك كرهاً منك.»

وافقته فيليسا قائلة: «هذا ما كنت أعتقده دائماً، تماماً مثل شروق الشمس عند الضحى وهي تملأ العالم بأشعتها الذهبية مبعدة ظلال الليل الدامس.»

«تبدين وكأنك أحببت من قبل.»

أسرعت فيليسا تقول: «لا، بالطبع لا! لكنني كنت قد قرأت الكثير عن الحب، كما أن صديقاتي تكلمن عنه كثيراً. أعرف بأن حدوثه في حياة أي امرء كان أمراً رائعاً، لكنني متأكدة من أنه لن يحدث في حياتي.»

فسألها الدوق: «لن يحدث في حياتك؟ ماذا تعنين بقولك هذا؟»

«إنني لن أتزوج بتاتاً!»

تململ الدوق في مقعده قائلاً: «إنه والحق قول سخيف.»

تابع يسألها الدوق بحدة: «لماذا تقولين وأنت في مثل هذا السن، ولا تفقهين شيئاً من هذا العالم، بأنك لست راغبة بالزواج؟»

لم تجب فيليسا وخيّم صمت قليل قبل أن يتابع الدوق: «عليك أن تجيبي على هذا السؤال يا فيليسا.»

أجابت وبنبرة يائسة: «لقد جعلتك... تغضب، لكنني... لم أقصد ذلك. لكنني كنت أعتقد دائماً، أنك وعندما تعلم ذلك مني... لن تكون راضياً عليّ.» توقفت للحظات قليلة قبل أن تتابع: «كما انني فكرت بأمري وبأنك لا ترغب في أن أكون عائقاً أو حجر عثرة في طريقك طوال أيام حياتي. لكن وبما انني أملك ثروة خاصة بي، لن أكلفك قرشاً واحداً.»

فقال الدوق: «دعي حديث المادة جانباً الآن، ما أريد أن أعرفه منك الآن، السبب الذي يجعلك تؤكدين فيه عدم رغبتك بالزواج. أمر لا يصدق! فهدف أي امرأة في هذه الحياة، هو أن تجد لها زوجاً.»

«هناك نساء لا يتزوجن، مثل المدرسات في المدرسة الداخلية.»

«إننا لسنا بصدد تلك المدرسات، بل بصددك أنت بالذات! كما اننا نتحدث بأمور الحب يا فيليسا. فإذا كنت فتاة طبيعية وتتمتعين بصحة جيدة، فمن المؤكد من أنك ستجدين

شخصاً يحبك وتحبينه وتتزوجان في النهاية، فهذه أمور طبيعية تحدث دائماً.»

فقالت فيليسا: «عندما تكلمت عن... الحب الآن، لم أكن أتكلم بصفة شخصية، وكان من الممتع أن أتباحث بمثل هذا الأمر معك وأن أسمع رأيك بالذات، لكنني أربط شيئاً منه بنفسي.»

قال عند ذلك بنبرة عنيدة ومتصلبة: «إنك لم تجيبيني عن سؤالي بعد.»

أجابت فيليسا بصوت بدا توسلاً: «هل... هل يجب أن أجيب عليه؟»

قال الدوق: «أعتقد ذلك، خاصة إذا كنا نريد أن نقوم بالأشياء معاً، فمن الضروري لأتمكن من مساعدتك، أن نعتمد على الصراحة منذ البداية.»

«يمكنني... أن أفهم ذلك.»

«جيد جداً. والآن، لقد طرحت عليك سؤالاً، وأتوقع منك الإجابة عليه.»

«ستعتقد... لو أنني فعلت ذلك... بأنني غبية.»

أجاب الدوق: «دعيني أحكم بنفسي إذا كنت غبية أم لا، وكما أبديت في سابق حديثنا رأيك في أي موضوع طرحناه، أجيبي الآن، حتى ولو كان رأيك لا يتفق مع رأيي.»

فكرت فيليسا للحظات قبل أن تجيب: «لقد فكرت بالأمر... كثيراً وبانتباه، لذا قرّرت وذلك بسبب معاملة والدي السيئة لي... بأنني لن أكون سعيدة... مع أي رجل.»

لقد كان يتوقع الدوق منها هذه الإجابة، وكان جوابه جاهزاً لها: «هذا افتراض أحمق، لأنك لم تتعرفي على أي

رجل في حياتك. إن الرجال يختلفون عن بعضهم البعض، لكن من سوء حظك أنك واجهت مثل هذا الأمر وأنت في سن صغيرة، وما لا أستطيع أن أمتنع عن قوله، بأنك واجهت رجلاً لا يسرّ النفس من بين البشر أجمعين.»

أجابت فيليسا: «أوافقك على ذلك، لكن في نفس الوقت، أعتبر أن الخوف شبيه بالحب، وشيء لا يمكننا أن نسيطر عليه. فهو أحياناً يسكن فينا وأحياناً لا، ولا يمكننا أن نفعل شيئاً تجاهه.»

فقال الدوق بحزم: «لا أوافقك الرأي مرة أخرى، فالخوف شعور فطري، لكن يمكن السيطرة عليه بإرادة المرء واعتداله النفسي.»

لمس مما قاله التأثر في ملامح وجه فيليسا، فقد كانت تصغي إليه بانتباه شديد، وأدرك بأنها متيقظة لكل كلمة يتفوّه بها. فتابع يقول: «عندما يذهب الجندي إلى ساحة المعركة، يخشى أن يُقتل أو يُجرح، وشعوره الفطري عندما يشاهد العدو، يحثّه على الهروب للنجاة بنفسه. إنها ردة فعل طبيعية جداً، لكن متى كان نظامياً ويدرك الصح من الخطأ، يتمكن من السيطرة على خوفه، ويجد تدريجياً بأن شجاعته تغلبت على خوفه، وبعد وقت قليل، يختفي الخوف منه كليّاً.»

أجابت فيليسا: «افهم جيداً ما تحاول أن تقوله لي، كما أنه، واعترف بذلك، كلام مقنع جداً، لكن وفي الوقت نفسه، عندما يخاف المرء، يشعر بضعف في داخله يطبق عليه لدرجة لا تمكنه من التنفس من جديد... إنه لشعور رهيب... وشيء لا يمكنني أن أسيطر عليه.»

فقال الدوق: «إذاً، فأنت لم تحاولي بما فيه الكفاية، كما أنك لم تعودي طفلة، بل امرأة، وعليك أن تدرّبي نفسك كما يُدرّب الجندي على إطاعة الأوامر، والأمر الذي يجب أن توقفيه، هو ألاّ تخافي بعد اليوم.»

أحبّت فيليسا أن تناقشه فقالت: «إن الجندي يطلق على نفسه الأوامر.»

«يتوجب عليه أن يحمل على عاتقه أوامر رئيسه، وهذا يعني أنه درّب نفسه ونظمها على إطاعة الأوامر.»

ضحكت فيليسا قليلاً ثم قالت: «إنك بارع حقاً، وتملك الإجابة عن كل سؤال! ومن الممتع التكلم معك، كما أنك تجيد استعمال الكلمات أكثر مني.»

فقال الدوق: «إنك تبتعدين عن موضوعنا الأساسي. ولقد كنّا نتكلم عنك.»

«إنه موضوع ممل، ما رأيك لو نتكلم بأي شيء آخر؟»

فكر الدوق أنه ربما يكون هو أكثر الناس يجد في الحديث عن نفسه متعة، لكن مع فيليسا كان الأمر مختلفاً، فهي تريد دائماً أن تتملص منه، فقال: «لقد قمت بأعمال غير جيدة في حياتي يا فيليسا، لكنني لم أكن حتى هذه الساعة جباناً.»

خيم صمت وجيز قالت بعده فيليسا: «إنه لمن السهل جداً ان تكون قوياً... عندما لا تكون... قادراً على أن تقوم بأي شيء آخر.»

ما قالته كان غير قابل للجدل فيه، فاعتقد الدوق بأنها حققت فوزاً عليه بذلك، لكنه قرر ان لا يتخاذل، فتابع يقول: «لا يمكننا ان نتوقع الفوز في كل مشادة كلامية مع العدو،

لكن يجب ان نكون واثقين بأننا المنتصرين في النهاية. وهذا ما يجب أن يكون هدفك!»

«ان اتوقف... عن الخوف؟»

اجاب الدوق: «نعم، واعدك لو حاولت، بأنك حتما ستفوزين، وستجدين كم كان الأمر سهلاً أكثر مما كنت تتصورين.»

تنهدت فيليسا بعمق وتابع هو: «انك تريدين الأوامر، حسناً، سأمنحك اياها. يجب ان تجعلي من نفسك شجاعة، وان تدربي نفسك ضد الخوف من فكرة الزواج ـ من الحب ـ من الرجال ـ من أي شيء يختص بالعلاقة بين الأفراد.»

«اذا نجحت... فهل ستكون... راضيا؟»

«بل ان نفسي ستتبهج لذلك، لأنك عندئذ ستكونين امرأة طبيعية، فأنا عادة لا اهتم بالشواذات مهما كان نوعها.»

شعر الدوق بأنه تصرف بقسوة ووحشية، لكن وبعد ما قالته مديرة المدرسة، ادرك انه يتوجب عليه ان يضع النقاط على الحروف مهما كانت النتائج.

كما انه ادرك بينما أخذ ينظر إلى فيليسا بثوبها البسيط وتسريحة شعرها التي لا تماشي العصر بأي شكل من الاشكال، بأنها تملك جمالاً غير عادي ويمكنها أن تكون جذّابة إلى حد بعيد.

فكر أنه حتى ولا أي معاق، له مثل هذه الأفكار السخيفة كخوفها من الرجال ومن عدم الزواج من أي واحد منهم. وتذكر كم وكم من الجياد روّضها كي تخفف من خوفها واضطرابها، كما أنه تذكر جواداً كان يملكه ويتوقع منه كل التوقعات الجيدة، كان الجواد يتصرف بطريقة خائفة وجلة

من كل شيء، حتى أنه يخاف من الظلال، أو من عواء كلب، أو من أي شيء غير عادي قد يصادفه في الطريق.

عندما امتطى الدوق ذلك الجواد لأول مرة، وجد صعوبة في جعله يعبر الجسر، كما أن السائسين وجدوا صعوبة أيضاً في إدخاله إلى الإسطبل.

لقد عانى الدوق الأمرين معه، لكنه في النهاية شفاه من علله هذه، فتحوّل الجواد لأن يكون واحداً من أفضل الجياد التي يملكها، كما أنه فاز معه بثلاث جوائز مهمة. فقد عوّده على النظام وعلى إصدار الأوامر، حتى أصبح الجواد يثق به ثقة عمياء، وغدا مطيعاً وليّناً، فما على الدوق سوى أن يصفّر له مرة واحدة، حتى يهرع الجواد مهرولاً إليه حتى ولو كان عند أطراف الحقل، ثم يلحق به إلى أي مكان يشاء.

فقال الدوق بينه وبين نفسه: سأعامل فيليسا بنفس الطريقة أيضاً.

كان يفتخر بنفسه بين أصدقائه كونه ضليعاً في علم النفس أكثر من أي شخص آخر، وكان بإمكانه أيضاً أن يتوقع ردات فعل الأشخاص في أي ظرف من الظروف.

لكن ومن المؤكد، أنه لم يصادف مرة امرأة تخشى جانب الرجال وترفض الزواج.

ثم قال لنفسه بثقة، إنه أمر يمكن معالجته وعندما ينتهي من علاجها، سيجد لها زوجاً يحبها لنفسها لا لمالها.

لاحظ بعد ذلك، ملامح القلق على محياها الجميل فقال لها: «اتركي كل شيء لي يا فيليسا. أعتقد بأنك تثقين بك

عندما أبيّن لك الصح من الخطأ، كما انني لن أجبرك على شيء قبل أن أناقشه جيداً معك.»

لمس الأمل على ملامح وجهها بدلاً من القلق، إذ قالت بنبرة متردّدة: «هل انك... لن تجبرني... على الزواج من أي كان... إذا لم أكن راغبة في ذلك؟»

اعتقد الدوق للوهلة الأولى من أنه سؤال غريب، لكنه تذكر بأنه الوصي عليها، وله الحق في السيطرة الكاملة في كل شيء يخصها، ومن دون شك، سيكون أيضاً المسؤول الوحيد على أموالها.

ثم قال بصوت عال: «أعدك، بل في الواقع أقسم لك، إنني لن أجبرك على الزواج من شخص لا تريدينه. لكن أريدك أن تفهمي بأن الزواج شيء مهم جداً، بل ضروري في حياتك. إنك ومن دون شك ستقعين يوماً في الحب، وستجدينه كالشمس التي تشرق بنورها لتمحي كل أثر لظلمة الليل الطويل.»

كان يكلمها والابتسامة لا تفارق وجهه، فبادلته فيليسا الابتسامة أيضاً قائلة: «إلى أن... أتزوج، هل... يمكنني أن أبقى معك؟»

تردّد الدوق قبل أن يجيب: «هذا شيء آخر يجب أن نتباحث به، ويجب أن تعرفي بأنني سأجد لك وصيفة خاصة.»

رأى علامات التعجب على وجه فيليسا، فتابع يقول بسرعة: «إنك لا تتوقعين في أن أرافقك إلى كل الحفلات التي ستدعين إليها، هذا بالإضافة إلى أن لي مشاغلي الحياتية الخاصة.»

ساد الصمت بينهما، فاعتقد أنها أصيبت بخيبة أمل، لكنه وقبل أن يتمكن من أن يضيف أي شيء آخر، سألته: «هل ستجبرني... على الذهاب... إلى تلك الحفلات؟»

أدرك من الطريقة التي تكلمت بها، ومن النظرة في عينيها، بأن الخوف كان هناك... الخوف من اضطرارها للتواجد مع الرجال.

فخامر الدوق شعور مفاجيء، بأنه سيواجه معها صعوبات جمّة ومشاكل كثيرة جرّاء هذا الخوف الذي يتحكم بها.

لذا فقد اختار الإجابة بعناية فائقة، قائلاً: «إنني شخصياً، أجد أن معظم الحفلات مملّة ومزعجة، لكننا سنتخطى هذا الحاجز متى وصلنا إليه، فأنت لا تعرفين شيئاً عن هذه الحفلات ولم يدعُك إليها أحد قبل الآن.»

ابتسمت فيليسا وقالت: «ربما لن يدعوني أحد.»

دخل الخادم عليهما ليقول للدوق: «لقد وصلت اثنتان من مصممي الأزياء، وأرشدتهما إلى غرفة الآنسة.»

نظر الدوق إلى فيليسا وقال: «ها قد بدأ درسك الأول.»

وفهم من ابتسامتها وكما العديد من النساء، بأنها متحمسة جداً لهذه الفكرة.

* * *

تساءل الدوق بينما كان يرفع كوب العصير بيده، أي ثوب من الأثواب التي اختارها لفيليسا بعد ظهر اليوم، قد ترتديه هذه الليلة.

لقد اختار لها العديد من الملابس، حتى انه أوصى على

ملابس أخرى من قماش مختلف، مما جعل مصممتا الأزياء تشعران بالذهول التام عندما فكرتا بالمبلغ الكبير الذي سيدفعه الدوق لهما.

ووافقت فيليسا على اختيار الدوق ولم تقم بأي اعتراض أو مناقشة في أمرها، ذلك لأنها تعلم بأنه على دراية بمثل هذه الأمور أكثر منها.

وعندما امتلأت غرفة فيليسا بالملابس الجديدة، قالت: «أرجوك... لا أريد أكثر من ذلك! فهذه الملابس تكفيني لمدة عام كامل! كما انني ولأتمكن من ارتدائها جميعاً، يجب عليّ أن أبدل دزينة منها كل يوم!»

ضحك الدوق وقال: «إننا لم نبدأ بعد! فأنت ما زلت تحتاجين إلى ملابس ركوب الخيل، وملابس خاصة بالريف، وملابس أيضاً لمناسبات متفرقة أخرى.»

فقالت فيليسا: «في هذه الحالة، ليتأخر أمرها، وإلا سألازم المنزل. لقد حصلت على الكثير في يوم واحد، وأجد أنها ستسبب لي عسراً في الهضم.»

ضحك الدوق مرة أخرى وقال: «حسناً، سنفعل ذلك في يوم آخر. ارسلي هاتين المصممتين إلي في الحال، لكن ابقي هذا الثوب عليك لأنه يعجبني كثيراً.»

طلب من مصممتي الأزياء العديد من الطلبات الأخرى، ثم نزل مع فيليسا إلى الطابق الأرضي.

كانت نوافذ الصالة مفتوحة وتطل على الحديقة، فمشيا إلى الخارج حيث بدأت الشمس تأذن بالمغيب.

الحديقة التابعة لمنزل الدوق من الناحية الخلفية، كانت صغيرة المساحة، لكنها زرعت بمختلف أنواع الزهور

البديعة، وخصص لها بستاني ليقوم على رعايتها على مدار السنة.

قال الدوق عندما أصبحا في الخارج: «حسناً يا آنسة. لقد أصبحنا جاهزين الآن كي نطلقك إلى المجتمع الراقي.»

أجابت فيليسا: «أما أنا، فأتساءل إن كنت سأغرق فيه أم سأتمكن في الوصول إلى بر النجاة.»

«إنه تساؤل منطقي جداً وتجدينه دائماً يتردّد مع طاقم كل سفينة.»

قالت فيليسا بخجل: «كما أنك قد تشعر بالمذلة لو سقطت في امتحان ما، وهذا الامتحان الخائب سيكون الأول من نوعه في حياتك المهنية الناجحة.»

أجاب الدوق: «إنني متأكد من أنك ستنجحين.»

فسألته بنبرة متردّدة: «لنفرض بأنني خذلتك فماذا سيكون؟»

«كما قلت لك قبل قليل، إنني متأكد من انك ستفوزين. ومن ثمّ سنحتفل بالمناسبة. ماذا تفضلين الالماس أو اللؤلؤ؟ أعتقد وقياساً لسنك، من الأفضل أن تختاري اللؤلؤ.»

لم تجب فيليسا وتابعا سيرهما في أرض الحديقة، عندها قطع الدوق هذا الصمت ليسألها: «ماذا هناك؟»

«ربما... ربما كنت تمزح.»

«بماذا؟»

«بأنك ستقدم لي الجواهر.»

فقال الدوق: «لا، لقد كنت أعني ما قلته، فأنت لا تملكين أي نوع من الجواهر، كما أنه أمر تفتخر به كل سيدة.»

«لكنني... لا أرغب في أن تقدم لي... مثل هذه الهدية.»

كانت تتكلم بصوت منخفض، لكن الدوق تمكن من سماعها، ثم نظر إليها بذهول وقال: «ولما لا؟»

«لأنك قدّمتها إلى العديد من النساء ولا أرغب في أن أكون... واحدة منهن.»

لم يجب الدوق على كلامها في الحال، لكنه قال بعد لحظات بحدة: «ما الذي تعرفينه حول الهدايا التي أقدمها إلى النساء؟ من الذي كلمك بهذا الأمر؟»

«هذا شيء... كنت قد سمعته.»

«ما الذي سمعت به؟»

«سمعت، أن من كانت تعني لك شيئاً خاصاً، تنتظر منك أن تكون كريماً معها، وتنفق عليها الكثير من المال.»

«وهل هناك أي خطأ في ذلك؟»

أسرعت فيليسا تقول: «لا... بالطبع... من غير الممكن أن تقوم أنت بأي خطأ... لكنني كنت أعتقد دائماً بأنهن جشعات، ويحمنّ حولك فقط لأجل ما تقدمه إليهن.»

توقفت قليلاً لتلتقط أنفاسها، ثم تابعت: «أودّ أن أقدّم لك هدية بسبب كرمك معي... لكن لا يحق لي بعد الآن... أن آخذ منك شيئاً.»

ذهل الدوق من كلامها مرة أخرى، لكنه وفي الوقت نفسه، كان يدرك ما تعنيه من كلامها المؤثر والحسّاس والذي يدلّ على مدى براءتها، لكنه ومع ذلك، يريد أن يُخرج هذه الأفكار من رأسها. فقال: «إن الهدية التي أريد أن أقدمها إليك، هي من النوع الذي يقدمها الوصي إلى المسؤول عنها، أو لنقل مِنْ مَنْ يترأس عائلة دارل وإلى أصغر عنصر فيها.»

علم بعد أن ابتسمت لقوله هذا، إن مثل هذه الفكرة لم تخطر ببالها قبلاً وإلا لما كانت انزعجت.

قالت عند ذلك: «إذاً، يجب ألاّ تكون من النوع النفيس والغالي الثمن، مما يذكرني بأنك قدّمت مرة لوالدتي في إحدى المناسبات عقداً ذهبياً يحمل حدوة الحصان ليجلب لها الحظ.»

عاد الدوق بذاكرته إلى الوراء ليتذكر أنه في تلك المناسبة، قدّم لضيوفه هدايا غير قيمة. فقد قدّم للنساء أساور وعقود، أما الرجال فقد قدم لهم علباً من السيجار.

كان على وشك أن يقول بأن هذا ما قصده حقاً، لكن فيليسا سبقته قائلة: «كنت أفكر بأن أقدم لك هدية على أن تكون مفاجأة لك، لكنك لم تقل لي بعد كم أملك من المال، أو كم يمكنني أن أنفق منها.»

أجابها الدوق: «إنني لم أعرف التفاصيل الكاملة بعد، لكنني اؤكد لك أنه يمكنك أن تنفقي كما شئت دون أن تتزعزع ثروتك!»

صرخت فيليسا بفرح: «في هذه الحال، أعرف جيداً ما يمكنني أن أقدمه لك.»

كاد الدوق أن يقول بأنه لا يريد أية هدية منها، وبأنه أيضاً يملك كل شيء يريده، لكنه تراجع عن ذلك كي لا يفسد بهجة فيليسا. لكن، وفي الوقت نفسه، شعر أنه لو قدمت له تلك الهدية، سيكون أسهل عليها أن تقبل بالهدايا التي له نية في تقديمها إليها.

وبما أنها وريثة ثرية، يُتوقع منها أن تملك الجواهر التي

تلفت أنظار المجتمع الراقي. فكر الدوق أنه وكمرحلة أولية، سيقدم لها عقداً من اللؤلؤ، وسواراً من ألماس.

كما أعتقد أيضاً أن دبوسين من الماس لشعرها قد يبرزان أناقتها وجمالها في المناسبات الخاصة.

وشعر أخيراً، بأنه كمن يقدّم فنانة جديدة لتعتلي المسرح لأول مرة، لذا، فمن الأفضل أن تلفت الأنظار إليها منذ أول الطريق.

ثم أكد لنفسه: إنني أكيد من أنها ستنجح في ذلك.

الفصل الرابع

اعتقد الدوق بعد أن انتهيا من تناول العشاء وابتعدا عن طاولة الطعام، بأنه ولأول مرة استمتع في تناول هذه الوجبة.

لقد عهد على نفسه منذ أن ذهب إلى تلك المدرسة الداخلية، بأن يقوم بكامل واجباته مع فيليسا التي تصله بها قرابة ليست بالبعيدة، لكنه كان يعتقد أيضاً، أنه من الممل جداً أن يمضي أوقاته مع فتاة في مثل سنها.

إنه أمر لم يقم به يوماً في حياته من قبل، ويعلم حق العلم أن هذه التجربة التي سيمر بها ستكون طويلة ومملة.

لكنه أدرك بسرعة، بأنها خارقة الذكاء، كما وجدها أيضاً قارئة ممتازة، فقد تناقشا بأمر العديد من الأدباء بمن فيهم اللورد بايرون.

علّق الدوق قائلاً: «ما يدهشني، كيف يسمح قانون المدرسة لتلميذاتها بقراءة كتبه.»

أجابت فيليسا: «لم تكن كتبه موجودة في مكتبة المدرسة.»

«هل تحاولين القول، أن كتبه كانت تدخل إلى المدرسة بطريقة سرية؟»

«كانت الفتيات تأتين بكتب له بعد عودتهن من الإجازة. وتعتقدن أيضاً بأن اللورد بايرون هو الرجل المثالي، كما حفظن العديد من قصائده الشعرية غيباً.»

ضحك الدوقِ ثم قال: «هل تعرفين شيئاً عن اللورد بايرون؟»

اجابت فيليسا: «عرفت ان حياته تشبه حياتك تماماً.»

قطّب الدوق حاجبيه وقال: «كان الأجدر بك ألاّ تقومي بمثل هذا التعليق.»

«ولما لا؟»

«لأنه موضوع غير قابل للبحث، خاصة وأنه يصدر عن فتاة في سنك وإلى رجل يكبرها بعدة سنوات.»

أسرعت فيليسا تقول: «آسفة، لكنني أعتقدت أننا اتفقنا على أن نتكلم مع بعضنا بصدق.»

فقال الدوق بحدة: «لا أرى فيما قلتيه أي صدق.»

وعندما شاهد تبدل ملامح وجه فيليسا، تابع يقول: «حسناً! أعتقد أنك كنت تصغين إلى الثرثرة من جديد. ويبدو لي، أن المدرسة لم تكن تشرف عليك جيداً كما كنت آمل.»

«لقد قلت لك ان فتيات المدرسة كن معجبات بك، ويأتين بأخبارك من منازلهن، فأنت مشهور ومعروف جداً.»

فقال الدوق: «مشكلتي من هذه الشهرة التي تسمينها، هي أنني لا أستطيع أن أعيش حياة خاصة بي.»

وشعر بالضيق يقبض على صدره من الحديث الذي لا يحب أن يتكلم به مع فيليسا. فتابع يقول: «هيا بنا نذهب إلى الصالة، أو هل أنك ترغبين بالخروج هذه الليلة؟»

تساءلت فيليسا بجزع: «الخروج؟ أين يمكننا أن نذهب؟»

ابتسم الدوق وقال: «إنني على ثقة أن هناك العديد من الحفلات تقام الليلة في منازل أصدقاء لي والذين سيرحبون بنا كل الترحيب.»

كان يعلم بأن الدعوات قد تزايدت خلال النهار، وما عليه سوى أن يختار أية دعوة منها.

إنه لم يكلّف نفسه بقراءة أغلب هذه البطاقات علماً منه بأنها تحتوي على دعوات لكل أنواع الحفلات والتي لا يمكن لفيليسا أن ترافقه إليها.

فقالت فيليسا بإلحاح أقرب إلى التوسل: «لا، أرجوك، لا أريد أن أخرج... إلى أي مكان، وأفضل أن أبقى معك هنا. فمن الممتع التكلم معك، وكما قلت سابقاً، هناك الشيء الكثير لأتعلمه.»

ففكر الدوق بعدما سمعه منها، أنه من الأنسب أن يقدمها غداً لصديق أو لصديقين ممن يعرفهم، ربما حول مائدة العشاء، أو أن يجمعها مع أشخاص مثقفين ممن يستمتع برفقتهم في باريس.

صفقت فيليسا بيديها بإعجاب لما لمسته من جمال وإبداع في الذوق من أثاث صالة المنزل ومن الرسومات التي عُلقت على الجدران.

فقالت: «الآن يمكنني أن أفهم ما معنى الفخامة، بعدما لمست التصميم الرائع لهذا المنزل.»

«هل تعنين بكلامك، أنك تفضلين تأثيث منزلك على الطريقة الفرنسية بدلاً من البريطانية؟»

ابتسمت فيليسا وقالت: «أعتقد بأنك تمتحنني بهذا السؤال، لكنني أجيبك، أنه وبالطبع قد تبدو مثل هذه الغرفة

في غير مكانها في القصر، كما أثاث ويليام كنت البريطاني، لن يبدو مناسباً هنا.»

ضحك الدوق وقال: «عشرة على عشرة.»

عندما انتهى من كلامه، فُتح الباب ودخل منه الخادم ليقول: «يسألك كونت أفالون إذا كان بالإمكان أن تستقبله.»

تردّد الدوق قليلاً، لكنه فات الأوان، فقد سمع صوتاً آتياً من الباب يقول: «كيف يمكن أن ترفضني يا صديقي؟» ودخل الكونت إلى الصالة.

إنه يعرف الدوق منذ سنوات عديدة، كما انهما في نفس العمر تقريباً.

كان هذا الكونت يملك قصراً من أفضل القصور في اللوار، ويُعرف بظرفه وبخفة دمه.

لقد تزوج عندما كان شاباً، لكن زوجته توفيت بعد زواجهما بخمس سنوات.

هتف الدوق به مرحباً: «هنري! من المفرح جداً أن أراك من جديد.»

«لما لم تبلغني بقدومك إلى باريس، لقد عرفت بوجوك منذ ساعتين فقط.»

فشرح له الدوق قائلاً: «تركت لندن فجأة البارحة، ولم يكن أمامي متسع من الوقت للاتصال بأصدقائي.»

«إنني لا أتذمر، لكنني مسرور لوجودك هنا.»

ثم نظر إلى ناحية فيليسا، فأدرك الدوق بأنه يتساءل من عساها تكون.

كانت فيليسا في تلك الأثناء تقف أمام لوحة قيمة، تنظر إليها بإعجاب شديد لدرجة أن الدوق لم يرد أن يقاطعها.

تقدّم الدوق مع الكونت باتجاه فيليسا وقال: «لقد جئت إلى باريس، لأصطحب قريبتي من المدرسة الداخلية التي كانت تتعلم فيها، كما انني الوصي والمسؤول عنها.»

وعندما اقتربا منها، قال الدوق: «أريد أن أعرّفك يا فيليسا إلى صديق قديم لي، الكونت أفالون. هنري، هذه فيليسا دارل.»

بان الإعجاب في عيني الكونت، وانحنى قائلاً: «تشرفت بمعرفتك يا آنسة.»

ابتسمت فيليسا بأدب، لكنها لم تمد يدها لتسلم عليه. فقط الدوق، كان يدرك بأنها ترتجف، وبأنها تبذل جهداً كبيراً لتتصرف بشكل طبيعي، كما يريدها أن تفعل.

قال الكونت للدوق ملمّحاً: «لم أكن أعرف أن لك فتاة مسؤول تجاهها في باريس.»

ثم التفت إلى فيليسا وتابع يقول: «أعتقد يا آنسة بأنك انتهيت الآن من دراستك ويمكنك أن تستمتعي بوقتك. واؤكد لك، بأن باريس تؤمن لك ذلك، بل تكون سعيدة.»

«شكراً... يا سيدي.»

كان صوت فيليسا بالكاد مسموعاً، ولاحظ الدوق من النظرة التي أطلت من عينيها، بأنها لم تكن تبالغ عندما قالت انها تخشى جانب الرجال.

ولأول مرة، عرف كيف تبدو فيليسا عندما تكون في غاية الخوف، كما أنه فهم لماذا تكلمت المديرة بهذا الخصوص بالذات.

لكنه فكر في الوقت نفسه، أن تصرفها الغريب هذا، تصرف مبالغ فيه لتلميذة مدرسة كانت قد عانت الأمرين في

طفولتها، هذا بالإضافة إلى الخجل الذي تشعر به معظم الفتيات عند الدخول إلى عالم المجتمع الراقي.

لم تشارك فيليسا في الحديث بينهما، وبقيت واقفة مكانها إلى أن أحسّت بالتعب، فجلست على أقرب مقعد وفي داخلها خوف شديد.

فقال الكونت يعاتب الدوق: «لماذا تضيع ليلتك الأولى في باريس هباء؟ فهناك العديد من أماكن التسلية والتي من المؤكد أن الآنسة فيليسا ستجدها ممتعة.»

أجاب الدوق: «فكرت أن تبدأ حياتها الاجتماعية غداً.»

فقال الكونت: «لكنني أعتقد أنه كان عليك أن تبدأ منذ الآن، لتتعرف قريبتك على باريس في الليل.»

رفع الدوق حاجبيه، فتابع الكونت مبتسماً: «لم أقصد باريس التي تعرفها أيها الجريء، بل باريس التي نجحت من براثن الثورة في العام الماضي. هناك اليوم أنوار تضيء الشوارع، ولا أصدق أن تكون الآنسة التي قضت أوقاتها في مدرسة داخلية، قد شاهدت المراكب البخارية المضيئة بألوان مختلفة تجوب نهر السين صعوداً ونزولاً.»

تردد الدوق للحظات قليلة، لكنه فكّر بعد ذلك، أنه على فيليسا أن تتجرد من هذا الخوف الذي يمتلكها في أسرع ما يمكن، لذا فقد قال لهنري: «فكرة لا بأس بها. بالطبع ستتمتع فيليسا برؤية باريس في الليل. هل نذهب بعربتك أم بعربتي؟»

أجاب الكونت: «بعربتي، إنها جاهزة، هذا بالإضافة إلى أن الحوذي يعرف تماماً إلى أين أفضل الذهاب دائماً.»

فقال الدوق: «اذهبي واحضري عباءتك يا فيليسا.»

نهضت فيليسا من المقعد في الحال، ورمقت الدوق نظرة تفهمه فيها. انها كانت تفضل رفض هذه الدعوة التي لم تكن في الحسبان.

فأسرع الدوق يقول بحزم: «سوف تستمتعين بوقتك! اسرعي!»

أذعنت فيليسا للأمر وخرجت من الصالة، وعندما أصبح الدوق والكونت بمفردهما، قال هذا الأخير: «كيف وجدت مثل هذا الجمال الرائع؟ إنها رائعة! إنني لا أصدق بأنني محظوظ لهذا الحد لأرى مثل هذا الجمال!»

فقال الدوق: «لقد تركت فيليسا المدرسة الداخلية بعد ظهر هذا اليوم.»

«إذاً، فأنا الرجل الأكثر حظاً! أعتقد بأنك سترافقنا، لكنني أقول لك بأنني قد أقدم نصف ممتلكاتي لأخرج معها بمفردي.»

ابتسم الدوق وقال: «لا أعتقد أنها قد تخرج معك بمفردها. على أية حال، إنني عازم على أن أكون مرافق حازم وصلب، كما أن فيليسا لا تعرف شيئاً عن العالم.»

فقال الدوق: «لهذا السبب تبدو بهذا الصفاء والنقاء.»

بدأ الدوق يشعر بالانزعاج من صديقه، لأنه كان يدرك أنه لو تمادى في إظهار إعجابه بها، فهي من المؤكد ستزداد خوفاً وكرهاً للرجال أكثر مما عليه الآن.

لذا فقد قال له: «اسمع يا هنري، إن فيليسا ما زالت صغيرة السن وبالتالي لا تفقه شيئاً من أمور هذه الحياة ولن أسمح لك بأن تزعجها وتجعلها تشعر بالخجل.»

نظر الكونت إليه بدهشة وقال: «ما الذي حلّ بك أيها

الجريء؟ هل أنك حقاً تريد أن تحذّرني قبل أن أبدأ بأي شيء؟»

«إنني فقط أحذرك قبل أن تفعل أي شيء.»

فقال الكونت: «سأحاول جهدي ألاّ أفعل شيئاً، لكنني وبصراحة أقول لك، لقد تعلّقت بها، وأعتقد بأنني...»

قاطعه الدوق قائلاً: «إنني الوصي على فيليسا، فحتى لو كنت جاداً فيما تقول، وهذا ما أشكّ به كثيراً، لن أدعك تزعج الفتاة الصغيرة.»

لم يجب الكونت لأن فيليسا دخلت في تلك اللحظة إلى الصالة. كانت ترتدي عباءة جميلة من المخمل الأزرق، وكان الخوف ما زال يطلّ بوضوح من عينيها.

قالت للدوق بصوت مضطرب: «إنني... جاهزة.»

فقال الدوق: «إن هذا جزء من ثقافتك الجديدة، كما أنه درس مهم جداً.»

وأضاف الكونت: «كما انني والأستاذ، نأمل أن تقدّري ذلك منّا.»

لاحظ الدوق أنها لم تنظر إلى الكونت عندما تكلم، بل اقتربت منه أكثر.

خرجوا من المنزل حيث وجدوا عربة تنتظرهم عند المدخل.

كانت العربة أنيقة جداً، يجرها جوادان ويقودها حوذي إلى جانبه خادم آخر للكونت.

ساعد الدوق فيليسا لتدخل إلى المقعد الخلفي للعربة، وعندما جلست، نظرت إليه بتوسل، فأدرك سريعاً ما كان قصدها.

احتار في أمره لبضع لحظات وكاد أن يطلب من الكونت لأن يجلس إلى جانبها، لكنه غيّر رأيه، لأنه خاف على فيليسا وعلى ردة فعلها، فصعد وجلس إلى جانبها. وجلس الكونت في المقعد المقابل لمقعدهما، وأخذ ينظر إلى فيليسا بإعجاب شديد.

عندما وصلوا إلى ساحة الكونكورد، هتفت فيليسا بابتهاج من روعة المنظر.

لقد عمل المهندسون وما زالوا على وضع منحوتة لويس الخامس عشر وأيضاً على منحوتة الحرية في الساحة الكبيرة.

كانت فيليسا قد قرأت في الصحف بأن نائب ملك مصر كان قد قدّم لفرنسا نصباً عمودياً ضخماً حفر ونحت منذ أيام الفراعنة. وكان هذا النصب سيوضع بين نافورتين للمياه على وشك الانتهاء من صنعها، وتحيط بهما فوانيس خصّصت لعدم حدوث حوادث الاصطدام.

هتفت فيليسا قائلة: «عندما ينتهي كل هذا العمل، ستكون في غاية الروعة. هذا شيء لا يمكنني أن أتصوره إلا في الحلم!»

شعت عينيها بفرح وسعادة، فنسيت للحظات قليلة خوفها وقلقها.

مال الكونت برأسه قليلاً، وسمعه الدوق يقول بصوت منخفض: «كما أنتِ بالنسبة إلي!»

تسمرت في مكانها وقد شعرت بأنها لسعت من حيّة خبثة، فأدرك الدوق بالذي تعاني منه في هذه اللحظات، وخشي من أن تبدأ بالبكاء، لكنه لم يكن في وسعه، سوى أن يلتفت

إليها ويلقي عليها نظرة مطمئنة أدخلت بعض الهدوء إلى داخلها المضطرب.

ابتعدت بهم العربة عن ساحة الكونكورد باتجاه ضفاف نهر السين، وكان الكونت يشير إليها لترى المراكب البخارية التي تتلألأ بأنوار تبهر الأبصار.

أمل الدوق ألاّ يكون الكونت قد لاحظ ردة فعل فيليسا لما قاله لها، وقرّر أن يتكلم معها بجدية أكثر من المرة القادمة وأن يجبرها على التحرّر من مخاوفها هذه.

أخذ يحدّث الكونت محاولاً إلهاءه عن التكلم مع فيليسا أو لجرها للمشاركة في الحديث.

ثم توجه الدوق إليها قائلاً: «ماذا شاهدت من حفلات الأوبرا؟ لقد أخبرتني المديرة بأنه لم يسمح لك إلا بمشاهدة الحفلات التي كانت توافق هي عليها.»

ابتسمت فيليسا لأول مرة منذ خروجهم من المنزل، لكن ابتسامتها جاءت واهية، ثم قالت: «أعتقد وبالنسبة إليك، قد تجدها من النوع الممل.»

«إذاً، وفي هذه الحالة، سنجد واحدة قد تعتبرينها ممتعة، لكن أثق بأنك تفضلين مشاهدة حفلات الباليه.»

تدخل الكونت هنا ليقول: «عربتي جاهزة لخدمتك في أية ليلة تريدها.»

أجابه الدوق: «شكراً يا هنري، سأبلغك بذلك متى كان الوقت مناسباً ويتوافق مع البرنامج العام.»

ألحّ الكونت قائلاً: «لكنني أريد أن أكون من ضمن برنامجك، فما رأيك لو اننا قمنا بنزهة غداً إلى البوا لتناول طعام الغداء هناك؟»

أجابه الدوق: «هذا لطف كبير منك يا هنري. ما أريدك أن تفعله، هو أن تجد لفيليسا صديقات في سنها، فهذا أهم شيء عندي.»

الطريقة التي تكلم بها الدوق، أعطت معنى واضحاً ومؤكداً، لكن الكونت لم ينزعج من كلامه، بل ابتسم وعينيه ترقصان وهو يقول: «إنني ما زلت أعتبر نفسي شاباً أيها الجريء، كما أنك أيضاً، لن تكبر أكثر من ذلك. وأعتقد أن حفلة صغيرة مع شقيقتي التي تقيم معي في الوقت الحاضر، قد تكون شيئاً ممتعاً ومسليا.»

أجاب الدوق: «في هذه الحال، آمل أن نتمكن من تلبية دعوتك.»

التقت عندها نظرات الدوق بنظرات الكونت وكأنهما يفهمان على بعضهما الآخر، ثم قال الكونت ضاحكاً: «إن للبريطانيين التعابير الأصح في مثل هذه الظروف عندما يقصدون بكلامهم أنهم لا يريدون استعمال شيء ما، وفي نفس الوقت، لا يريدون أن يستعمله غيرهم! وأنا لا أريدك أن تشارك في هذه الحفلة أيها الجريء!»

أجابه الدوق: «حسناً، لكن أعلم أنه عادة ما لا تتوقع حدوثه، قد يكون لك بمثابة خبرة جديدة عليك.» ومرة أخرى ضحك الكونت بلهو.

تابعت العربة سيرها تدور بهم في أحياء مدينة باريس لساعة تقريباً، ثم ومع إلحاح الدوق، عادت بهم العربة إلى المنزل.

قال الدوق للكونت: «لقد كان يوماً طويلاً يا هنري، وأعتقد أن على فيليسا أن تأوي إلى الفراش.»

وافقه الكونت قائلاً: «بالطبع، لكنني أعرف بأن يومك لم ينته بعد، وهناك شيء ما ينتظرك.»

أدرك الدوق أن صديقه يحاول أن يشوّه صورته في عيني فيليسا بطريقة متعمدة.

فأجابه الدوق بخفة وبرود: «إذا كان هذا ما تعتقده يا صديقي، دعني أقول لك بأنك مخطىء في اعتقادك وتتوهم أموراً لا صحة لها. لقد كانت رحلتي طويلة مملة، وأشعر بالتعب الشديد، لذا فإنني سأذهب رأساً إلى الفراش لأستمتع بنوم هادىء ومريح.»

مازحه الكونت قائلاً: «أراك أيها الجريء قد بدأت تكبر، فأنا أتذكر تلك الأيام التي لم تأو فيها إلى الفراش، إلا مع حلول الفجر.»

أجاب الدوق بلهجة صارمة: «هناك من سينتظرني صباح غد وتدعى فيليسا، فلدينا العديد من الأشياء نريد القيام بها، كما اننا سنذهب للتسوّق، فإذا كنت تريد حقاً أن تأخذنا إلى البوا، يمكنك عندها أن تتصل بنا عند الظهيرة وليس قبل ذلك.»

قال الكونت بشيء من السخرية: «إنني فعلاً ممتن وشاكر لك هذه الخدمات الصغيرة التي تؤديها لي!»

توقفت العربة أمام منزل الدوق، وعندما نزل الكونت أولاً، أسرع الدوق ليقوم هو بمساعدة فيليسا على النزول.

«شكراً جزيلاً... لك.» قالت فيليسا ذلك وهي تتجاوزه وتسرع بصعود الدرجات القليلة للمنزل.

فقال الدوق بعد أن اختفت فيليسا داخل المنزل: «إنها ما زالت صغيرة السن وخجلة للغاية.»

قال الكونت: «وجميلة. جميلة جداً!»

مدّ الدوق يده ليصافح صديقه قائلاً: «عمت مساء يا هنري، فأنا لن أدعوك إلى الدخول.»

تذمّر الكونت وقال: «أراك يا صديقي قد أصبحت مستبداً، وأجد صعوبة في تفسير ذلك.»

قال الدوق بحدة: «ليس هناك من شيء لك لتفهمه، عدا أنك تتصرف بتهوّر وطيش تجاه فتاة لم تختبر بعد أمور هذه الحياة.»

سخر الكونت حين قال: «لا بدّ وأنك تعني نفسك بذلك.» ثم ضحك بلهو كعادته وتابع يقول: «حسناً أيها الجريء، سأعتبر هذا الأمر منافسة بيننا، وسنرى من سيفوز في النهاية!»

دخل بعد ذلك عربته، وعندما أقفل خادمه الباب، تابع يقول: «إلى اللقاء أيها الجريء. سأعدّ الساعات إلى أن أراها ثانية.»

تكلم الكونت بشيء من التحدي والابتسامة لم تفارق وجهه عندما أخذت العربة تبتعد به، بينما كان الدوق عابساً وهو يدخل إلى المنزل.

وكما توقع، وجد فيليسا تنتظره في الصالة، وقد خلعت عنها عباءتها، وأسرعت نحوه حالما ظهر أمامها، ثم قالت بتوسل: «أرجوك... أرجوك... لا تسمح بأن نتناول الغداء... أو أن نذهب بنزهة مع صديقك. إنه... لا يروق لي... كما أنه... يخيفني!»

ابتعد الدوق عنها واتجه ليقف قرب اللوحة الزيتية، ثم قال: «يجب أن أهنئك يا فيليسا. لقد أحسست بمدى خوفك، لكنك تمالكت على ذلك الخوف بشكل عظيم.»

مشت فيليسا نحوه ببطء شديد قائلة: «لقد كنت خائفة... بل خائفة جداً عندما... كلّمني بتلك الطريقة.»

سألها الدوق: «ما الذي كان يخيفك؟ لقد ضربك والدك في السابق ويمكنني أن أفهم سبب خوفك منه، لكن من الواضح أن الكونت لا يريد أن يسبّب لك الأذى.»

خيّم صمت وجيز، ثم قالت فيليسا بصوت منخفض: «لكن... شعرت بأنه... قد يلاطفني!»

فعاد الدوق يسألها: «هل يكون الأمر مخيفاً لهذه الدرجة لو فعل ذلك؟ إنه يجدك فتاة جميلة ويريد أن يمتدح هذا الجمال!»

ألحت فيليسا قائلة: «لقد... أفزعني. شعرت بقلبي يكاد أن يقفز من مكانه، ومع انني أردت أن أتكلم، لكن الكلمات بقيت عالقة في حلقي.»

فقال الدوق: «إن الكونت لم يلاحظ ذلك منك، مما يعني يا فيليسا، بأنك نجحت في الخطوة الأولى من هدفك.»

«لم... لم تعجبني الطريقة... التي نظر بها إليّ.»

أجابها الدوق: «إنه معجب بك فقط، ويعتقد أنك جميلة، بل أجمل من شاهدها في حياته كلها، وبما انه ممتاز في الحكم على النساء، عليك أن تعتزي وتفتخري بحكمه عليك.»

وعندما لم تعلّق فيليسا بكلمة واحدة، تابع الدوق بحدة: «يا لها من سخافة حقاً! إن معظم النساء يسعدهن أن ينجذب الكونت إليهن، لأنه وسيم وينتمي إلى عائلة راقية وثرية، كما انه واحد من الذين يُستحب أن تتعرفي بهم.»

حاول في كلامه أن يقنع فيليسا بأن الكونت رجل مقبول، لكنه لم يدرك ما قد يكون وقع كلامه عليها.

فصرخت برعب شديد وهي تقول بتوتر: «هل تريد أن تقول لي... بأنه يريد أن يتزوجني؟»

سألها الدوق: «ولما لا يمكن هذا؟ كما أن العديد من الرجال يرغبون ذلك.»

«لقد قلت لك سابقاً... بأنني لن أتزوج... بتاتاً... بتاتاً... بتاتاً!»

نطقت فيليسا بكلماتها الأخيرة بنبرة هستيرية لم يسمعها الدوق منها من قبل.

فنظر إليها بدهشة واستغراب، ليجد عينيها قد امتلأتا بالدموع وأخذتا تتلألآن مع أنوار الشموع.

ثم تابعت بحدة تخنقها العبارات: «لماذا عليك أن... تفسد هذا اليوم الجميل الذي أمضيته معك؟ لماذا عليك أن تتابع التكلم عن... الزواج... وعن الرجال... وتخيفني بهم؟ أفضل أن أعود إلى المدرسة الداخلية على أن أرى الكونت من جديد! إنني أكرهه!»

وعندما انتهت من كلامها أسرعت بالخروج من الغرفة وأقفلت الباب بقوة من ورائها، تاركة الدوق يقف مكانه بذهول تام يفكر متسائلاً بالذي يمكنه أن يقوم به بشأنها.

* * *

شعرت فيليسا بالندم الشديد في صباح اليوم التالي، وأدركت بأنها تصرفت بطريقة غير لائقة ليلة البارحة. وعندما أُبلغت بأن الدوق ينتظرها لتناول فطور الصباح

في الحديقة، انضمت إليه وهي تشعر بأنها كسيرة الفؤاد.

نهض على الفور عندما رآها تقترب منه بفستانها الأزرق الجميل، مفكراً لو أنها تصفي ذهنها من تلك الأفكار التي تتمسك بها بقوة.

«صباح الخير يا فيليسا!»

نظرت في عينيه وقالت كعادتها بصوت منخفض رقيق: «إنني... إنني آسفة... لقد تصرفت... بطريقة غير لائقة... ليلة البارحة. لقد كنت... لطيفاً جداً... معي. ولا أعرف كيف... يمكنني أن أعتذر منك.»

فسألها الدوق: «هل يمكننا أن ننسى ذلك؟ إن هذا الصباح رائع جداً، ولا يمكن أن نفسده بالأمور المأساوية.»

ابتسمت فيليسا وقالت: «نعم... بالطبع... لكنني آسفة جداً.»

فقال الدوق: «سأطلب فطوراً على الطريقة البريطانية بدلاً من الكرواسان الفرنسي. وأرجو منك أن تبدإي يومك بالخطوة المناسبة.»

أجابت ضاحكة: «أعتقد بأنني دائماً أخطو خطوات غير مناسبة! لكن... الأهم.... هو أن تسامحني.»

قال الدوق: «لقد سامحتك، طالما انني لن أتحمّل منك مآسي جديدة عند الصباح! لأنه الوقت الوحيد من اليوم الذي أنشد منه السلام والهدوء.»

أجابت فيليسا: «سيكون لك ذلك، وسألزم الصمت إلى أن تنتهي من قراءة الجريدة.»

أيدها الدوق قائلاً: «على كل امرأة عاقلة أن تتخذ مثل هذا الأسلوب والتصرف.»

ثم تناول الجريدة التي وضعت إلى جانبه، ووجد في الصفحة الاجتماعية، بأنه قد أعلن عن وصوله إلى باريس وبأنه يقيم في منزله في الشانزليزيه.

فأدرك بأن ذلك يعني، أنه قد يصله المزيد من الدعوات. حتى أن سكرتيره الفرنسي الذي اختاره له السيد رمسغيل بالذات، كان قد أخبره بأن هناك مجمومة كبيرة من الرسائل على الطاولة في غرفة مكتبه.

قلّب الدوق صفحات الجريدة بسرعة، وعندما انتهى من ذلك وضعها جانباً وقال: «لقد قرّرت بأنه قد يضجرني لو كنت منزعجة وتعيسة كما كنت ليلة البارحة، لذا فلقد بعثت برسالة إلى الكونت أبلغه فيها بأننا لن نتمكن من تناول طعام الغداء معه هذا اليوم.»

اطلّت السعادة من عيني فيليسا وهي تقول: «شكراً لك، شكراً جزيلاً لك.»

تابع الدوق قائلاً: «ما آمله فعلاً، هو ألاّ تظهري الكراهية والعداء لأصدقائي الآخرين، الذين أدين لهم بالوفاء لحسن ضيافتهم لي في زياراتي السابقة لباريس.»

«إذا كان ذلك يرضيك... سأوافق على أن أتناول طعام الغداء مع الكونت... وسأحاول ألاّ أشعر بالخوف أبداً.»

فقال الدوق: «لقد ألغيت الموعد الآن، لكنني عازم على أن آخذك إلى حفلة هذه الليلة، ولا أريد منك أي تصرف هيستيري، فحاولي أن تستمعي بالسهرة.»

«سأفعل سأفعل... أي شيء... تطلبه مني. كما انني أرجو بصدق... أن أرضيك.»

كان في نبرة صوتها شيء يثير الشفقة عليها، فقرّر

الدوق بينه وبين نفسه أن يستعمل بعض الليونة معها.

لقد عرف أنها كانت على حق حين قالت بأنه من الصعب عليها أن تتجنب ذلك الخوف الذي يعتمرها، لكنه كان يعرف أيضاً، أنه لأجلها ولأجل صالحها، يجب أن تسيطر وتتغلب عليه.

لذا فقد قال لها: «إذا أردت إرضائي، عليك أن تبدي في حفلة الليلة بكامل أناقتك وجمالك، وان تعديني بأن تتصرفي بطريقة تليق بك.»

أجابت فيليسا: «إنك تعرف من انني سأحاول، ولكن... أرجوك... أرجوك ألاّ تغضب مني... لأنني لا أستطيع أن أتحمل ذلك!»

فقال: «ما أقترح أن نقوم به الآن، هو أن اضطلع على تلك الرسائل العديدة التي وصلتني، ومن ثم نذهب إلى البوا قبل أن نذهب للتسوّق.»

«كانت الفتيات تقول دائماً في المدرسة الداخلية بأن الرجال البريطانيون يكرهون التسوّق، وبأن الفرنسيين وحدهم يستمتعون به.»

أجاب الدوق: «أريد أن أتسوّق معك لأنه لا يمكنك أن تتدبري أمرك بمفردك، فهناك العديد من الأشياء الرائعة التي يسعدني أن أشتريها لك.»

فقالت ببراءة الأطفال: «سيكون من... الممتع جداً، أن أتسوّق معك!»

تابع الدوق يقول: «كما اننا وبعد أن ننتهي من ذلك، فكرت لو أننا نتناول طعام الغداء في البوا. لقد عرفت بأن مطعماً جديداً افتتح هناك، ربما قد نجد طعاماً أفضل في منزلي،

لكن أعتقد بأن الأمر سيكون ممتعاً لو تناولنا الطعام تحت ظلال الأشجار.»

ابتهجت أسارير فيليسا وصفّقت بسعادة قائلة: «سيكون الأمر ممتعاً حقاً! وأفضل ما يمكنني أن أقوم به! لكن، أرجوك... أرجوك ألاّ تدعو... شخصاً آخر معنا.»

أجابها الدوق: «لم أفكر قط بأن أقوم بمثل هذا الشيء.»

جرى كل شيء وفق ما خططه الدوق، وأخذها إلى أغلى متجر للأزياء في شارع لابيه.

اشترى لها مظلات مزركشة عديدة تتلاءم مع الفساتين الكثيرة التي طلبها لها يوم أمس.

كما اشترى لها صندوقاً للأمتعة تحتاج إليه كل سيدة عندما تسافر، وطلب أن تحفر أحرف إسمها باللون التركواز عندما أعربت فيليسا عن تعلقها بمثل هذا اللون الذي يجلب الحظ، وشرحت له قائلة: «كان لوالدتي خاتماً بحجر تركوازي اللون وقالت بأنه كان يجلب لها الحظ دائماً، لكن والدي لم يسمح لي بأن أحتفظ به، وأعتقد بأنه قد باعه.»

بادرها الدوق بالقول: «سأمنحك واحداً.»

أسرعت فيليسا تقول: «لا... بالطبع لا! لم أكن أقصد بأنني أريد هدية بعد أن قدّمت لي الكثير لغاية الآن... أردت فقط أن أقول لك بأن اللون التركواز يجلب الحظ.»

أجابها الدوق: «أحب أن أقدّم لك الهدايا، لذا فإنني عازم على أن أقدم لك مثل هذا الخاتم في مناسبة ذكرى مولدك.»

«حسناً، ربما انني الآن أعرف أنه بإمكاني أن أشتري لك

الهدايا من مالي الخاص، لن أشعر بالاحراج أو أي شيء آخر.»

فقال الدوق: «يجب أن تتعلمي قبول الهدايا بلباقة، كما عليك أن تتعلمي قبول المديح بك. انظري إلى النساء الفرنسيات، كيف يتقبلن المديح الذي يعتبرونه حقاً من حقوقهن ولا يشعرن بذلك الاحراج الذي تشعرينه أنت.»

تنهدت فيليسا، فأدرك أنها تحاول بل تمنع نفسها عن القول بأنها لا تريد أي مديحاً قد يأتي من الرجال.

جلسا في المطعم في البوا، إلى أفضل طاولة تحت ظلال شجرة، وفي الحال، وضع إبريق من الماء البارد إلى جانبه.

ثم أخذ يختار الطعام له ولفيليسا، وبعد أن أعطى أوامره للخادم وأصبحا بمفردهما قال: «الآن يمكننا أن نتكلم. في أي موضوع ترغبين أن نناقش به اليوم؟»

قبل أن تتمكن فيليسا من الاجابة، جاء صوت رجل من طاولة قريبة منهما، وهو يقول: «صباح الخير أيها الدوق، صباح الخير يا فيليسا!»

نظر الدوق بدهشة باتجاه مصدر الصوت، ووجد شاباً من المؤكد أنه بريطاني لكنه لم يتمكن من التعرف إليه.

فسأله الدوق: «هل أعرفك!»

«تصلني قرابة بعيدة بك، وأدعى دنيس أرلين.»

تبدّلت ملامح وجه الدوق، وصرخت فيليسا بخوف قائلة: «لقد... كتبت... لي!»

«نعم يا قريبتي فيليسا فعلت ذلك. لكنني شعرت بخيبة

أمل عندما لم تجيبي على رسالتي، بينما كنت أتوق لمقابلتك.»

أجابت فيليسا: «لكنني... لم أكن أرغب بمقابلتك! وما طلبته... كان غير لائق... ومعيب!»

كانت تتكلم بغضب وبانت الدهشة على وجه دنيس أرلين، الذي قال: «أعتقدت أن ذلك سيثير اهتمامك.»

قام الدوق من كرسيه قائلاً: «أودّ أن أتكلم معك يا أرلين.»

ثم ابتعد عن الطاولة، وبعد تردّد بسيط لحق به دنيس أرلين. وعندما أصبحا بمنأى عن سمع فيليسا، قال الدوق: «دعني أوضح لك الأمر، إنني الوصي على فيليسا دارل والمسؤول الوحيد عنها. لقد قرأت الرسالة التي كتبتها إليها، ولقد اعتبرتها فاضحة ولا تليق بتصرف شاب مثلك.»

فأجاب دنيس أرلين مدافعاً: «أردت أن أتعرف بفيليسا.»

فبادره الدوق قائلاً: «إنه ومن الواضح جداً، تريد أن تضع يدك على ثروة فيليسا ولا شيء أكثر من ذلك، لذا، دعني أوضح لك الأمر. ان فيليسا لا ترغب بمعرفتك، فإذا وجدتك تلاحقها في أي مكان قد تُدعى إليه، سأتكفل بطردك منه في الحال! هل كلامي واضح لك؟»

أجاب دنيس أرلين: «واضح جداً أيها الدوق، لكنني أملك الحق في رؤية أقربائي في أي وقت. قد تحاول أن تبعد قريبتي عني، لكنك ستفشل حتماً.»

ثم ابتعد عنه بعد أن أنهى كلامه، بينما أخذ الدوق يحدّق به إلى أن ابتعد عن أنظاره، فعاد عند ذلك إلى طاولته.

فسألته فيليسا: «هل... أبعدته؟»

«لقد قلت له ان يدعك وشأنك.»

«لقد... أخافني.»

من يسمعها لا يمكنه أن يخطىء تلك النبرة الخائفة التي صدرت عنها.

فقال لها الدوق مؤنباً: «يجب ألاّ تخافي منه، فهو ليس سوى صائد ثروات، وما عليك سوى أن تتحديه وتجابهيه بأسلحتك، ليس لأنه رجل فقط، بل لأنه لص!»

تكلم بهذه الحدة بسبب انزعاج فيليسا، وتساءل عن نوع الحياة التي ستكونْ لها فيما لو تكرّر مثل هذا الشيء.

وكأنما قرأت أفكاره، سألته بتردّد: «هل تعتقد أنه من غير الممكن أن أهب أموالي كلها؟ فلو حصل ذلك، لن يهتم بي الرجال أكثر.»

فكر الدوق أن الجواب الأنسب هو أن يقول لها بأن الكونت لم يكن يهتم بثروتها، خاصة وأنه يملك أموالاً لا تحصى ولا تعد، لكنه تراجع عن ذلك وقد خشي أن يخيفها هذا الشيء أكثر مما هي عليه.

فقال لها: «اعتقدت بأنك تثقين بي.»

«إنني أثق بك!»

«إذاً توقفي عن القلق! سأنتبه لك جيداً.» ثم تابع قائلاً: «دعينا ننسى أمر هؤلاء الرجال المتعبون، وأن نستمتع بجمال هذه الطبيعة.»

ابتسمت بحسن وجمال وقالت: «ما الذي يجعلهم يفسدون علينا... هذا اليوم؟»

أجابها: «طبعاً، فهم لا يستحقون منا أن نفكر حتى بهم.»

«معك حق، لقد قتلت تنيناً آخر. هيا نمتع أنفسنا.»

كانت عيناها تشعان فرحاً وابتهاجاً، فقال الدوق: «الاستمتاع هي الكلمة المناسبة في مثل هذه الظروف، هيا نتناول طعامنا الآن.»

الفصل الخامس

فكّر الدوق وهو ينظر حواليه في هذه الصالة الفاخرة، بأنه أحسن في الاختيار لفيليسا الحفلة الأولى التي ستطل فيها على المجتمع الراقي.

لقد اشتهرت صاحبة الدعوة السيدة غوتيه باختيارها للمدعوين من أصحاب الفكر، حيث بينهم الأدباء والكتاب والسياسيون والنقّاد.

أدرك الدوق أن الحديث بينهم لن يكون مشوقاً فقط بل في براعة وسرعة خاطر، وفكر أيضاً بما أن معظمهم كبار في السن، فمن المؤكد أن فيليسا لن تخشى جانبهم.

لقد رحّبت به السيدة غوتيه ببهجة وسعادة، وكانت تبدو أصغر من سنها بكثير، ومن يراها لا يصدّق بأنها قد تجاوزت الثلاثين.

ابتسم الدوق قائلاً: «يسعدني جداً أن أراك من جديد يا هيلين!»

أجابته: «لقد كنت أعدّ الساعات لرؤيتك منذ أن عرفت بأنك في باريس. كما انني سمعت أنك الوصي على فتاة رائعة.»

قدّم الدوق فيليسا للسيدة غوتيه التي تكلمت معها بطريقة هدّأت بعضاً من مخاوفها، والتي كانت قد تزايدت منذ خروجهما من منزله في الشانزيلزيه.

لم تتوسل إليه فيليسا لأن يبقيا في المنزل بعد أن تناولا

طعام العشاء وذلك كي لا تثير غضبه، لكنه كان متأكداً أن مثل هذه الفكرة كانت موجودة في رأسها، فقد قالت عينيها له كل ما عجز لسانها عن قوله.

على أية حال، لقد سلّم جدلاً بأنها ستفعل ما يرغب به، بالرغم من شعوره بمدى اضطرابها وقلقها من الذي سيكون آجلاً بعدما أصبحا في العربة.

كانت تبدو في غاية الروعة والجمال، عدا أي شيء آخر، فأراد وبأي شكل من الأشكال أن يراها أصدقاؤه.

لقد اختارت فستاناً أبيض اللون لسهرة هذه الليلة، وسرّحت شعرها بطريقة تماشي الموضة الحالية. وكانت تعلم بعد أن تأملت نفسها في المرآة، بأنها أشبه ببطلات القصص الخيالية، خاصة عندما عقصت شعرها بدبوسين على شكل نجمتين كانا قد أهداهما لها الدوق.

قالت له عندما نزلت إلى الصالة حيث كان الدوق ينتظرها: «شكراً لهذين الدبوسين الرائعين!»

أجابها: «إنهما يليقان بك جداً، كما انني أفتخر ويسعدني أن أقدمك إلى عالم المجتمع الراقي.»

شعر بعد أن قال لها ذلك بأنها ترتجف اضطراباً في داخلها، لكنه تجاهل هذا الأمر، وضحكا وتمازحا حول مائدة العشاء، لدرجة أنها نسيت ما الذي ينتظرها.

وعندما أصبحا في العربة، فكر الدوق أن يوضّح لها الأمور أكثر، فقال: «لا تنسي ما قلته لك وأن تصغي إلى ما يقوله الناس، لتعبّري أنت بالتالي عن أرائك وأفكارك يا فيليسا، فالمرأة المعقودة اللسان، تعتبر مملة ويبتعد الآخرون عنها.»

أجابت فيليسا كعادتها بصوت رقيق منخفض: «سأحاول... أن أتكلم، لكن من الصعب تنفيذ ذلك عندما... أكون خائفة.»

فقال الدوق بحزم: «يجب أن تتغلبي على مخاوفك وتذكري، بما أنه يبدو عليك شدة الذكاء، بأنك ستلفتين الأنظار من كل صوب.»

أراد أن يستعمل كلمة جميلة أو كلمة رائعة، لكنه تراجع عن ذلك وقد أعتقد أن مثل هذا الشيء قد يثير خجلها أكثر.

لازمت فيليسا الصمت، فتابع يقول: «دعيني أخبرك عن مضيفتنا.»

ثم أخذ يصف لها الصالة التي تستقبل فيها السيدة غوتيه ضيوفها وذكر لها عدداً من المدعوين الذين يعتبرون قادة من الفكر فوق العادة.

توقف عن الكلام، فسألته فيليسا عند ذلك: «هل تروق لك... كثيراً؟»

فبادلها الدوق سؤالها بسؤال من عنده: «ومن أتى على مثل هذا الكلام؟»

«لقد شعرت بشيء غريب في عينيك عندما تكلمت عنها، وأنا متأكدة... من أنها تعني... شيئاً هاماً بالنسبة لك.»

فكر الدوق بأنها كانت حادة الملاحظة أكثر مما كان يتوقع، فأجابها: «ستلتقي بالعديد من أصدقائي في باريس يا فيليسا، لكنني أعتقد أنك تبالغين كثيراً كلما أردت أن أتكلم عن أي واحد أو واحدة منهم.»

أجابت: «معك حق، لكن وبما أنه تربطك صداقة بالسيدة غوتيه، أشعر أنه علي أن أنافسها.»

فقال الدوق بحدة: «لا أريدك أن تقومي بأي شيء من هذا القبيل! فلا شيء مضجر مثل التقليد. فقط كوني نفسك يا فيليسا، وطوري شخصيتك كي تكون استثنائية.»

فكر بعد أن قال ما قاله، بأنها ومنذ الآن تبدو مستثناة عن غيرها، لكن من الخطأ الكبير أن يقول لها ذلك.

فكرت من ناحيتها للحظات بالذي قاله لها، لكن لم يكن أمامها متسع من الوقت كي تردّ عليه، وقد اقتربت العربة من منزل السيدة غوتيه الذي لا يبعد كثيراً عن منزل الدوق.

لم يكن منزلها كبيراً مثل منزله، لكنه كما صاحبته، كان ومن دون شك رائعاً ومميزاً.

وجدا عندما دخلا صالة الاستقبال، أنه قد سبقهما عدة أشخاص إلى هذه الدعوة، وهذا يسهّل الأمر على فيليسا في البداية.

إنما الشخص الوحيد الذي لم يتوقع وجوده، هي الكونتيستة دومارغني.

ابتسمت له وقالت: «أهلاً بك. لقد أطلت غيابك هذه المرة.»

جلس الدوق إلى جانب فيليسا بين هذا الجمع القليل، ودارت الأحاديث بطريقة شيّقة وممتعة وكأنها طابة تقذف من مكان لآخر.

تقدّمت السيدة غوتيه وأمسكت بيد فيليسا لتعرفها بجماعة أخرى من المدعوين كانوا قد وصلوا الآن، من بينهم كاتب مسرحي كبير، وشاب آخر أنتج أول مسرحية له.

نظر الدوق إلى حيث أصبحت فيليسا، وأدرك من النظرة

في عينيها بالذي تعانيه في داخلها من خوف واضطراب، فابتسم لها مطمئناً ومشجعاً.

أدرك أيضاً، أنها حاولت أن ترد له ابتسامته بالمثل لكنها لم تتمكن من ذلك.

«متى ستلبي دعوتي؟» سألته الكونتيسة بعد أن جلست في المقعد الذي أخلته فيليسا. لكنه لم يجب، أو لنقل أنه وجد صعوبة كبيرة في أن يجيبها، لأن عينيه كانتا على فيليسا وقد لاحظ بوضوح توترها من الكاتب المسرحي الذي جلس إلى جانبها.

وتساءل الدوق عن كيفية التصرف معها، أو كيف بإمكانه أن يشرح لها الأمر لو أن الخوف تملك بها أكثر وجعلها تنهض من مكانها مذعورة تحاول الهرب.

كان الكاتب ينظر إليها بإعجاب وهو يبتسم لها، ففكر الدوق بينه وبين نفسه: يجب أن أقوم بشيء ما.

أتته الفرصة السانحة في الحال، فقد أعلن الخادم عن وصول ستة مدعوين جدد، الأمر الذي دعا السيدة غوتيه لأن تنهض من مكانها لترحب بهم.

فوقف الدوق أيضاً ومشى نحو فيليسا قائلاً لها: «يسعدني يا فيليسا بأن الفرصة سنحت لك بالتعرف إلى صديقي القديم الكاتب السيد كلسي، فهو يتمتع بلسان حاد جداً تماماً مثل حدّ السيف، ولا أحد يجرؤ أن يخطىء أمامه!»

قهقه السيد كلسي عالياً ثم قال: «إنك مجامل جداً أيها الدوق، وأكثر لباقة معي من السابق! لكن ربما هذه الحسناء الرائعة جعلتك تقدّر من هم أكبر سناً مثلي.»

فقال الدوق: «كنت وما زلت أقدّرك، حتى عندما كنت

وبطريقتك الفريدة، تستخف بنجاحي في سباق الخيل.»

أجاب السيد كلسي: «إنك ناجح جداً، وهذا ما جعلني أتذمر بشأنه أيها الجريء! وها أنت تفوز من جديد علي بوجود مثل هذه الفتاة الرائعة معك وكأنها فراشة الربيع حولنا نحن أوراق الخريف!»

فقال الدوق بخفة: «ستدير رأس هذه الفتاة من كلامك! إنها لم تعتد على مثل هذا المديح... تعالي!»

ومدّ يده ليساعد فيليسا على النهوض من مكانها وقال: «أريد أن أعرفك بصديق آخر لي، ولن أسمح للسيد كلسي بأن يحتكرك لوحده.»

انتقل الدوق بفيليسا إلى جانب آخر من هذه الصالة، فقالت له: «هل يمكننا... أن نغادر هذا المكان؟»

نفى الدوق بحركة من رأسه، وكان على وشك أن يقدمها إلى والدة السيدة غوتيه التي من المؤكد لن تخشى جانبها، عندما انضمت الكونتيسة فجأة إليهما.

وقالت: «يجب أن تعرفني إلى هذه الفتاة المسؤولة منك. لقد أخبرني هنري كم انها جميلة، لكنني حقاً لم أعتقدها بهذا الجمال.»

لمس الدوق في نبرة صوتها الغيرة والحسد بالرغم من مديحها، ثم تذكر أنه تجاهل السؤال الذي توجهت به إليه في بداية السهرة. وكان كل ما بإمكانه أن يفعله الآن، هو أن يعرّف فيليسا إلى الكونتيسة.

إنما الكونتيسة كانت قد سبقته لتقول: «كم إنك محظوظة يا آنسة ليكون لك وصي مثل الدوق، الذي هو على استعداد لأن يرافقك بإخلاص إلى الأماكن الهامة في باريس.»

لاحظ الدوق بأنها لفظت كلمة «إخلاص» بحدة، كما وانه أدرك بأن فيليسا لاحظت ذلك أيضاً.

أجابت فيليسا: «كما تقولين يا سيدة، فأنا محظوظة جداً.»

فقالت الكونتيسة بخبث: «لكن وبالرغم من ذلك، يجب ألاّ تحاولي الاحتفاظ به كليّاً لنفسك.» ثم تابعت تقول: «يجب أن أستأذن منكما الآن.»

انحنى الدوق لها، لكنه لم يجب بأية كلمة، وعندما ابتعدت الكونتيسة عنهما قال لفيليسا: «يجب أن نغادر الآن، لأننا سننضمّ إلى حفلة أخرى.»

ظهرت السعادة بأبهى معانيها على وجه فيليسا، لكن المضيفة وصاحبة الدعوة السيدة غوتيه، لم تتخلين عنهما بهذه السهولة، كما حاول العديد من الساهرين في الحفل، أن يأخذوا من الدوق وعداً بتلبية دعوتهم إلى الغداء أو إلى العشاء في الأيام المقبلة، إلى أن تمكنا أخيراً من الافلات منهم بذوق ولباقة.

سألته عندما أصبحا في الخارج: «هل يجب حقاً... أن نذهب إلى مكان آخر؟»

أجاب الدوق: «بما أنك تصرفت بشكل جيد، سأعيدك حالاً إلى المنزل!»

ابتهجت أساريرها للحظات قليلة، ثم تبدّلت ملامحها فجأة وقد استدركت أمراً هاماً، فسألته: «هل هذا يعني... انك ستذهب إلى الدعوة الأخرى بمفردك؟»

أجابها: «لا. بما اننا سنذهب في الصباح الباكر لركوب الخيل، أفضل أن ننام باكراً.»

ثم طلب الدوق من الخادم قائلاً: «اطلب عربة دوق دارلينغتون.»

أسرع الخادم طائعاً وهو ينادي على السائس باحضار عربة الدوق.

نطق الخادم باسم الدوق بطريقة غريبة ضحكت لها فيليسا، لكن وفي تلك اللحظة بالذات، ظهر رجل يجري بأقصى سرعة نحو الدوق ومن الاتجاه الذي تقف فيه العربة، وقال لاهثاً: «أسرع يا سيدي! لقد وقع حادث! إلحقني!»

ذهل الدوق، وأول ما خطر بباله، انها ستكون كارثة لو حدث شيء للجوادين اللذين كانا يجران عربته.

لقد كانا جوادان عظيمين ولقد اشتراهما منذ بضعة أشهر مضت من تاترسول، ويعتبرهما أفضل الجياد الذين يملكهم.

لحق بالرجل من دون أن يعطي للأمر لحظة تفكير، لكنه وبعد أن تقدم بعض الشيء، تذكر فيليسا والتي كان يتوقع أن تكون إلى جانبه، لكنها لم تكن.

التفت ليجدها ما زالت تقف عند باب المنزل وإلى جانبها رجل. فأدرك أنه أخطأ، وأنه من المستبعد أن تكون هي، لكن عندما حوّل نظره لعله يجدها في مكان آخر، سمع صراخها.

لقد صرخت بهلع وخوف شديد عندما دفعها أحدهم إلى داخل عربة قريبة أخذت بعد ذلك بالانطلاق بأقصى سرعة.

اعتقد الدوق للحظات قليلة من أنه لم يكن يرى بوضوح، لكن وبما أن من خصائصه المميزة الاستدراك بسرعة، فهم كل ما جرى.

فالتفت حواليه لعله يرى عربته، فوجد في تلك اللحظة بالذات، عربة كبيرة تجرها أربعة جياد تدخل من البوابة الحديدية.

تعرّف الدوق إلى سائق العربة الفرنسي الذي جلّ مُناه في هذه الحياة أن يكون محط انظار الجميع.

فهو الوحيد الذي يقود عربته بأربعة جياد عندما يكون مدعواً إلى حفلة ساهرة، بدلاً من جوادين كما هي العادة، ويكشف غطاء عربته كي يظهر للجميع أناقته المبالغ فيها. كما يعتمر قبعة عالية، ويضع وردة في عروة سترته، ويزيّن ربطة عنقه بدبوس من حبة اللؤلؤ التي هي بحجم عين الصقر دون مبالغة.

لم يتردّد الدوق لحظة واحدة، فأسرع إلى ناحية العربة، ثم صعد إلى جانب السائق بينما كانت ما زالت تتحرك، وقال: «ساعدني! هناك من خطف الفتاة المسؤول عنها واحتاج إلى عربتك!»

حدّق به الرجل الفرنسي بدهشة، ثم وبعد أن تعرّف إليه، فهم أن النبيل البريطاني الذي كان فيما مضى يتجاهله ولا يعتبره، يطلب الآن مساعدته.

فبدأ يقول: «يسعدني أن أقدم لك المساعدة...»

قاطعه الدوق قائلاً: «دعني أقود هذه العربة!»

ثم أمسك بالرسن وقادها بالاتجاه الذي اتجهت به العربة التي خطفت فيليسا، إلى ناحية الشانزيلزيه.

لمح في المسافة البعيدة، عربة سوداء تجري بأقصى سرعة، فتأكد له أن في داخلها فيليسا.

كان الدوق يقود عربة الرجل الفرنسي بمهارة وبسرعة

فائقة، الأمر الذي جعل صاحبها يمسك بقبعته كي لا تطير في الهواء.

ولحسن الحظ، لم يكن هناك ازدحام للعربات في طريق الشانزيلزيه، مما جعله يقترب أكثر فأكثر من العربة التي يطاردها.

راجع الدوق حساباته، فتأكد له أن الخاطف هو دنيس أرلين، وانه الآن يتجه بها إلى ناحية فرساي ومنها إلى خارج باريس حيث يتمكن من اخفائها هناك.

فمن حسن حظه أن هذه العربة ظهرت أمامه في اللحظة المناسبة، لأن عربته، قد ادعي باطلاً وبهتاناًبأنه قد أصابها مكروه، كي يتمكن الفاعل من تنفيذ خطته الدنيئة.

لقد تمكن الدوق بالجياد الأربعة التي تقود العربة، بأن يتابع اقتفاء أثر العربة الخاطفة، فاستمرت المطاردة بينهما حوالي الميلين، إلى أن أصبحت الشوارع تضيق شيئاً فشيئاً وكأنها تعلن الخروج من المدينة والدخول إلى الطرقات الضيقة التي تؤدي إلى الأرياف.

كانت هذه الفرصة الوحيدة للدوق، فتمكن بمهارته المعهودة في هذا المجال، أن يتجاوز العربة ويوقف عربته أمامها قاطعاً بذلك الطريق على دنيس أرلين.

رمى الدوق بالرسن إلى الرجل الفرنسي وقفز من العربة ليتوجه بخطى سريعة نحو العربة الثانية والغضب الشديد يهزه هزّاً.

شاهده دنيس أرلين، فقفز هو الآخر من عربته.

لاحظ الدوق أنه لم يكن يقود العربة بنفسه بل كان هناك سائق آخر.

على أية حال، ليس هناك متسع من الوقت لملاحظة أي شيء آخر، سوى أن دنيس أرلين مستعد للقتال وقد لوّح بقبضتي يديه في الهواء.

لكن مثل هذه الأمور لا تفزع الدوق الذي يعتبر ملاكماً ماهراً ويتابع التمارين المستمرة في هذا المجال.

كان دنيس أرلين أطول بقليل من الدوق، ويعتبر نفسه بأنه ملاكماً أفضل منه عموماً، لم يضع أحدهما الوقت بالكلام، فهجم دنيس أرلين وبه حماس ليلقيه أرضاً وليتابع خطفه لفيليسا.

خادعه الدوق باستعمال يده اليسرى، بينما وجّه إليه لكمه من يده اليمنى ضربت ذقنه ضربة مباشرة.

أخذ دنيس أرلين يتمايل ذات اليمين وذات الشمال بعد تلك الضربة المباشرة، فسدّد الدوق له لكمة أخرى، أسقطته رأساً على الأرض مغشياً عليه.

توجّه الدوق بعد ذلك إلى العربة وأخرج منها فيليسا التي انفجرت باكية، فهدّأها قائلاً: «اهدإي. لقد انتهى كل شيء والأمور أصبحت على خير ما يرام.»

ثم أمسك بيدها واتجه بها إلى عربة الرجل الفرنسي الذي استدار بعربته في الاتجاه الذي يؤدي إلى باريس.

ساعد الدوق فيليسا بالصعود إلى العربة، ثم التفت إلى ناحية دنيس أرلين ليرى إن كان ما يزال فاقداً وعيه كي لا تدوسه العربة في طريق العودة إلى باريس.

لكنه كان قد استعاد وعيه، ووقف على قدميه بإعياء، فركب الدوق في عربة الرجل الفرنسي قائلاً له: «أكون شاكراً لك لو رجعت بنا إلى منزلي.»

لازمت فيليسا البكاء ولم يحاول الدوق أن يجبرها على التوقف، لكنها ومع الوقت، أخذت نفسها تهدأ، ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة، ناولها محرمة من محارمه الحريرية الفاخرة.

أخذتها منه بصمت ومسحت عينيها، ثم قالت بصوت منخفض ومرتعش بالكاد أن يسمع: «لقد... لحقت بي! ولا تدري كم كنت أخشى ألاّ تكون قد عرفت بالذي حدث!»

أجابها الدوق بهدوء: «لقد شاهدت كل شيء!»

ثم تابع مؤكداً: «أعتقد بأنني لقّنت دنيس أرلين درساً لن ينساه ابداً، ولا داعي لأن تخافي من أن تشاهديه مرة ثانية!»

أجابت فيليسا بنفس النبرة المضطربة: «لقد... فزعت كثيراً.»

فقال الدوق: «أعرف، لكن وكما تعلمين، إنني جاهز دائماً للقضاء على التنين!»

«طبعاً... وها أنك... أنقذتني للمرة الثانية!»

نظرت إليه بينما كانت تكلمه، فتمكن وبواسطة ضوء القمر، أن يرى الدموع تتلألأ في عينيها، لكنها بدت في الوقت نفسه رائعة الجمال.

فشعر فجأة بأنه يريد الاستمرار بحمايتها، وأن يخلصها من هذا الخوف الذي يسيطر عليها، وأن يتأكد بأنها له، ليس للوقت الحاضر فقط، بل إلى أمد طويل.

ما كان يتملكه من شعور تجاهها الآن، لهو مدهش حقاً، فأدرك بعدها وهو في حالة من الذهول التام، بأنه وقع في فخ الحب!

لم يخطر بباله يوماً بأن فيليسا قد تعني له شيئاً أكثر من

الشفقة عليها منذ أن وجدها تُضرب بوحشية من قبل والدها.

وبما أنها كانت فتاة بائسة وعاجزة على أن تقوم بشيء بمفردها، تمكنت وبطريقة ما أن تزحف إلى قلبه بصورة لم يتوقعها قط.

لكنه وعندما قاتل لأجل الدفاع عنها، أدرك بأنه لم يكن فقط يقاتل من أجل انقاذها، بل كان يقاتل من أجل استرداد شيء يخصّه وحده.

«شكراً... لك!»

تمكن الدوق من سماع ما قالته من بين أنفاسها، وأدرك أنه إذا كان يريد أن يبوح بحبه إليها، عليه في البداية ملاطفتها كي لا تخشى جانبه هو الآخر.

أراد أن يقول لها: أحبك! لكنه كان يعرف أن ذلك صعباً قبل مرور بعض الوقت، وعليه أن يقطع طريقاً شائكة قبل أن يبوح لها بذلك، فهو لا يتوجب عليه فقط أن يجعلها تتخطى مخاوفها من الرجال، بل يريدها أن تدرك، انه وبينما كانت تقدّره كبطل اسطوري يقضي على التنين، فهو أصلاً رجل أحبها لأنها امرأة.

لقد قال للكونت ألاّ يستعجل الأمور معها، فهذا ومما لا شك فيه ينطبق عليه أيضاً، لذا، عليه أن يكون في غاية اللطف معها.

تنفس بعمق متسائلاً بينه وبين نفسه كيف يمكنه أن يقول لها بأنه يحبها، وكم أنها رائعة في كل شيء، عدا بما يختص بخوفها من الرجال.

لكن السؤال الأهم، هل سيفوز بها؟ إنها لا تخاف منه وتعتبره شيئاً هاماً في حياتها.

لقد أحبّ كل شيء فيها منذ أن شاهدها من جديد، ليس من أجل جمالها فقط، بل لأجل تلك الضحكة الرائعة التي تظهر غمازتيها.

لقد أحب أيضاً حدة طباعها، وسرعة خاطرها في فهم وإدراك أي شيء قد يقوله لها، كما شدّته طريقتها البريئة عندما تصغي إليه كلما شرح لها أمراً ما.

شعر الدوق فجأة بالامتنان والسعادة لأنه عثر على فتاة مثل فيليسا التي منحته ذلك الشيء الذي كان ينقصه في حياته، وهذا ما كان يحاول أن يشرحه دائماً لصديقه هبرت كلما خاب أمله بكل امرأة يتعرف إليها.

الآن، وبعد أن كان قد فقد الأمل من أن يعثر على امرأة تكون زوجة له، وجدها في مدرسة داخلية.

كانا قد اقتربا من باريس عندما قطعت فيليسا الصمت لتقول بنبرة قوية: «كيف تمكنت... أن تلحق بي... بهذه السرعة؟»

أجابها الدوق: «عليك أن تشكري هذا الرجل النبيل. فأنا لم أسرّ برؤية أحد كما سرّرت برؤية السيد دو تريون حين رأيته يدخل البوابة الحديدية لمنزل السيدة غوتيه.»

«شكراً لك أيها الدوق. يسعدني جداً أن أكون دائماً في خدمتك.»

فقال الدوق: «أود أن أعبر عن امتناني لك، أنا وفيليسا. كما آمل لو انني لم أتمكن من مبادلتك الجميل في باريس، أن أبادلك إياه في زيارتك المقبلة إلى لندن.»

إن الدوق وفي جميع الأحوال، يرد الجميل لمن يسدون إليه الخدمات، وكان يعلم أن الشيء الوحيد الذي قد يرضي

غرور هذا الرجل الفرنسي، هو أن يقول لأصدقائه بفخر واعتزاز بأنه كان ضيف دوق دارلينغتون في إحدى حفلاته.

وصلوا أخيراً إلى منزل الدوق الذي نزل من العربة أولاً، ثم ساعد فيليسا للنزول بأمان، وبعد ذلك لوّح بيده للسيد دو تريون.

وقال: «شكراً لك مرة ثانية، إنني لن أنسى مساعدتك لي. وتذكر أن تتصل بي عندما تذهب إلى لندن.»

أجابه السيد دو تريون: «لن أنسى أبداً أيها الدوق. وأريدك أن تعلم، انني أعتبر بعد أن رأيتك تسقط ذلك الرجل أرضاً، بأنني شاهدت الشيء الأكثر إثارة في حياتي!»

لاحظ الدوق نبرة الإعجاب في صوته، فابتسم له، ثم رافق فيليسا إلى الداخل. قال الدوق: «أعتقد أننا نحتاج إلى عصير فاكهة بارد، وأن نشرب نخب الحظ الذي كان إلى جانبنا والذي جعلني أنقذك بهذه السرعة.»

شعت عيني فيليسا ببهجة وقالت: «أوافقك على ذلك، كما انني أدرك... بأنني كنت محظوظة جداً... لقد كان بإمكانه أن يخطفني بعيداً إلى حيث لا تدري.»

فقال الدوق: «سأنتبه لك جيداً، ولن أدع مثل هذا الأمر يتكرر ثانية. لكن أريدك أن تنسيه وتعتبريه مغامرة قد تضحك منها كثيراً في السنوات المقبلة.»

ناولها كوباً من عصير الجزر، فقالت: «إنني... أحاول... أن أضحك، لكنني أجد صعوبة في تنفيذ ذلك... لأنني وعندما أدركت مراميه، شعرت بخوف شديد.»

وافقها الدوق قائلاً: «من المؤكد أنك قد تشعرين بذلك، لكن كان عليك أن تعرفي بأنني حتماً سأخلصك.»

أجابت فيليسا: «رجوت كثيراً كي تتمكن من ذلك... فعندما سألته ما الذي يفعله... وإلى أين سيأخذني... أجابني بأنه سوف يتزوجني!»

فقال الدوق: «بالطبع، أو هل أنك توقعت شيئاً آخر؟ انه ليس مهتماً بك يا فيليسا كإنسان، بل كان يريد ثروتك.»

«إنني... أكره ثروتي هذه!»

«قد تكون الثروة مزعجة، لكنها في الوقت نفسه تمنحك الراحة والسعادة. على أية حال، إذا كنت تملكين هذه الثروة حقاً، ستتمكنين من تقديم تلك الهدية التي وعدتني بها.»

شعر بأنه تخطى الحاجز الأول من حواجزها الكثيرة بعد الذي قرأه في عينيها.

ثم تابع يقول: «يجب أن تأوي إلى الفراش الآن، لكن سأشرب أولاً نخب فيليسا التي أظهرت شجاعة وجعلتني فخوراً بها.»

«سأشرب نخبك أنا أيضاً... لأنني أعرف بأنك لن تخذلني يوماً.»

ثم ضحكت بخفة وتابعت: «لقد كان أمراً رائعاً عندما أسقطت ذلك الرجل الفظيع أرضاً، حتى انني حسبت نفسي أشاهد مشهداً من مسرحية.»

كان في نبرة صوتها إعجاب شديد بشجاعته، إنما هذا لم يكن ما كان يريد الدوق سماعه منها.

الفصل السادس

ذهب الدوق باكراً في صباح اليوم التالي إلى ممارسة رياضة ركوب الخيل، وذلك قبل أن يتناول طعام الفطور، دون أن يصطحب معه فيليسا تاركاً إياها ترتاح.

وعندما عاد من نزهته، أرسل الخادم ليقول لها بأنه يتناول الفطور في الحديقة، ويأمل أن تنضمّ إليه.

لكنها لم تظهر إلا بعد أن انتهى من تناول طعامه وبدأ بقراءة الجريدة.

اعتقد عندما وقع نظره عليها وكأنه آتية من المروج الخضراء حاملة معها روائحها العطرة التي تبهج النفس.

لكنها وعندما اقتربت منه أكثر، وجد أنه كان على حق عندما اعتقد بأنها تحتاج إلى الراحة.

فقد تكحّل السواد حول عينيها وبدت شاحبة اللون، كما كان في عينيها تعبيراً جعله يتوجس شراً.

على كل، فهو الآخر، لم يستطع النوم طوال الليلة الماضية، يفكر بكل الذي جرى وكيف بدأ يشعر بأن الحب شيء أعظم وأعمق مما كان يتصور، لدرجة أنه كان عندما ينظر إليها، يشعر بخفقان شديد في قلبه.

بالإضافة إلى أنه شعر نفسه شاباً في الثامنة عشر من عمره وقد افتتن بحبه الأول. في الواقع، وبالرغم من الكثيرات اللواتي عرفهن، كانت فيليسا الحب الأول وحتماً سيكون الأخير.

أراد أن يقف ويسرع إليها ليخبرها بحبه لها، لكنه تمالك نفسه بحزم وقد خشي أن تضطرب نفسها فوقف احتراماً لها عندما وصلت إلى جانب الطاولة، وقال لها مبتسماً: «صباح الخير يا فيليسا، آمل بأن تكوني قد استمتعت بنوم هادىء ومريح.»

فقالت: «أردت أن... أذهب معك لركوب الخيل... لكنهم لم يوقظوني.»

أجابها الدوق: «أعتقد أنه من الأفضل لك أن ترتاحي، كما أنه سيكون لدينا متسع من الوقت لنقوم بذلك حين نعود إلى بريطانيا.»

رأى التساؤل في عينيها، فقال لها وهو يجلس: «لقد قرّرت أن نعود إلى ديارنا في الحال، لأنني أشعر وبسبب ما جرى، أنه لن تستمتعي في باريس في الوقت الحاضر، لكن وعندما نعود إليها مرة ثانية، سأعرفك على معالمها أكثر وآمل أن تعجبك كما تعجبني تماماً.»

لم تجب فيليسا في البداية، ثم جلست على الكرسي وقالت بنبرة جدية هادئة: «أريد... أن أتحدّث إليك.»

أجابها: «آمل ألاّ يكون بخصوص ما جرى الليلة الماضية. فقد قرّرت أن نقفل هذا الموضوع وننساه كلياً.»

«إنه أمر... لا يمكن للعقل البشري... أن يحتمله... الذي أريد قوله...»

فقال الدوق: «أنت تعلمين يا فيليسا، بأنني سأصغي إلى أي شيء تريدين قوله لي، لكن وفي الوقت نفسه، يجب أن تدركي وتعي أن ما بدر من تصرفات دنيس أرلين لهو أمر غير عادي. كما أنه تصرف لا يدل على النبل والشرف

وألوم نفسي كثيراً لأنني لم أتوقع حدوث مثل هذا الشيء.»

«لكن كيف كان لك لتعرف بذلك...؟ كيف كان لك لتعرف بأنه... قد يفعل أي شيء ليفوز بثروتي؟»

سألها الدوق: «أهذا ما قاله لك؟»

«لا أعرف ماذا... قال... فقد كنت... في منتهى الخوف... ولم استمع إلى شيء مما قاله.»

أجابها الدوق بحدة: «انسي هذا الأمر! أعدك بأنني سأعتني بك بصورة أفضل في المستقبل، وسيكون هذا أسهل في بريطانيا. لقد سبق وأعطيت أوامري برحيلنا صباح الغد.»

لم تجب فيليسا، فأضاف: «لن تخسري الثياب التي طلبتها لك، فقد طلبت أن ترسل إليّ عبر القنال حالما تنتهي خياطتها.»

فقالت فيليسا: «لم أكن... أفكر بثيابي... لكن بأمر آخر.»

خيّم صمت وجيز، فاستعجلها الدوق قائلاً: «هل ستتكلمين بهذا الأمر الذي يشغل بالك؟»

«ليلة البارحة وعندما لم أتمكن من النوم... أخذت أفكر بكل الذي جرى.»

بان التفكير الشديد على وجه الدوق، وقد شعر معها بذلك خاصة وأنه ذاق نفس الشيء من عدم النوم.

تابعت فيليسا تقول: «فكرت... بمدى لطفك وتفهمك لي... وكم هو مضجر لك في أن تمتنع عن رؤية أصدقائك.»

أدرك الدوق في الحال بأنها كانت تعني الكونتيسة بكلامها وقد تصورت بأنه كان يفضل أن يكون معها.

أراد أن يقول لها ان هناك امرأة واحدة فقط تهمه وتثير

اهتمامه هي نفسها، حتى أنه يرغب في أن يقضي معظم أوقاته معها. لكنه تراجع عن ذلك علماً منه بأن عليه أن يكون أكثر حذراً معها كي لا تفقد ثقتها بالشخص الوحيد الذي منحته إياها.

فقال بخفة: «لا أريد أن أدلّك بقولي بأنني أفضل أن أبقى معك، لكن سأقول لك بالمقابل، بأنني أتشوق للقيام بمشاريعنا لهذا اليوم.»

أومأت فيليسا بيدها بطريقة لم يفهم الدوق القصد منها، ثم قالت: «إنك لطيف جداً... لكنني أريد أن ألتحق مرة أخرى بمدرسة داخلية.»

تصلبت أعضاء الدوق، لكنه وقبل أن يتمكن من التكلم، تابعت فيليسا بسرعة وكأنها شعرت بأنه سيناقشها بهذا الأمر: «هناك مدرسة داخلية أخرى في وسط باريس، وكنت قد تعرفت بالمديرة هناك في وقت مضى... لذا فأنا أكيدة من أنها... ستقبلني كمدرّسة.»

لأول مرة، ومنذ أن بدأت تتكلم مع الدوق، رفعت فيليسا نظرها إليه، وأدرك بأنها تخشى أن يغضب منها.

لم يجب الدوق ولازم الصمت لفترة طويلة يفكر بما عساه أن يردّ عليها، لكنه تكلم أخيراً وقال: «إنك مدركة تماماً وبما أنني الوصي عليك، بأنه عليك أن تحصلي على موافقتي أولاً، لكن بالطبع، إذا كانت هذه هي أمنيتك، فأنا لن أقف حاجزاً بينك وبين تنفيذ ذلك.»

تنهدت بعمق، فلم يعرف الدوق إذا كانت هذه التنهيدة، تنهيدة ارتياح أو أي شيء آخر.

فتابع الدوق قائلاً: «من البديهي، أن أفكر أولاً بك وبسعادتك.»

فقالت بجرأة: «حين أكون في أية مدرسة داخلية... لن أشعر بمثل هذا الخوف الشديد... كما انك لن تنزعج ولن تكلف نفسك الاعتناء بي.»

أجابها الدوق بهدوء: «إنك لا تزعجينني، بل على العكس، أسعدني أن أقاتل لأجلك ليلة البارحة ولقد منحني ذلك رضى عن نفسي عندما أوقعت دنيس على الأرض فاقداً وعيه، ويسعدني أن أقوم بذلك مرة أخرى.»

فقالت بنبرة يائسة: «لكن لنفترض أنه لم... يكن دنيس أرلين في المرة القادمة...»

قاطعها الدوق قائلاً: «إنني جاهز لأن أقاتل أي كان! على كلٍ، أذكر بأنك شبهتني بفارس أسطوري، لذا فإنني قد أسمن وأصبح كسولاً لو انني لم أقم بأي شيء.»

ابتسمت فيليسا ابتسامة واهية، لكنها بقيت تُظهر القلق، فتابع الدوق: «ما أوافق على أن تفعلينه، هو أن تقيمي معي لمدة ستة أشهر، وستحاولين في هذه الفترة أن تنتصري على مخاوفك من الرجال وأن تستمتعي بوقتك في القصر، حيث هناك العديد من الأشياء التي أريد منك مشاهدتها.»

تراءى له أن هناك حماساً أطلّ من عيني فيليسا، لكنه لم يكن متأكداً من ذلك، فتابع يقول: «بعد نهاية الستة أشهر، إذا قلت لي بصراحة وبصدق بأنك لست سعيدة وتريدين أن تصبحي معلمة، عندها فقط سأوافق على طلبك، وتكونين قد أقفلت على نفسك وتخليت عن العالم بأكمله.»

الطريقة التي تكلم بها أوحت لها بأن باب المدرسة الداخلية سيقفل عليها نهائياً ليخفيها عن العالم الخارجي.

استحسنت فيليسا هذه الفكرة وصفقت بيديها برضى، فأدرك الدوق أنه نجح في خطوته الأولى. فتابع: «إنني سأستمتع بركوب الخيل معك، كما سأستمتع بأحاديثي معك في السهرات بمناقشة الكتب المختلفة في مكتبتي.»

«هل... إنك... حقاً تريدني؟»

بدا الآن ومن دون أدنى شك، هناك تبدّل ملموس في ملامح وجهها.

لقد أدرك الدوق أنها تجد صعوبة في أن تصدق بأنه لا يجدها مزعجة ومملة. وتاقت نفسه لأن يقول لها، كم أنه حقاً يريدها، لكنه قال بدلاً عن ذلك: «سأشعر بخيبة أمل كبيرة، لو أنني عدت إلى بريطانيا بمفردي.»

«في هذه الحال، أوافق على اقتراحك... لكن لنفترض وقبل انقضاء مهلة الستة أشهر... وجدتني مملّة؟»

أجابها الدوق: «إذا كنت فعلاً كذلك، سأقول لك حتماً. لقد اعتقدت يا فيليسا بأننا توافقنا قبل الآن على أن نكون صريحين مع بعضنا البعض.» ثم تابع مبتسماً: «كما أنك قد تجدينني مملاً أنا الآخر وشخص لا يمكنك احتماله.»

ضحكت فيليسا ثم قالت: «إنني لن أفكر بتاتاً بأنك قد تكون كذلك!»

عادت إلى عينيها الآن نظرة الإعجاب به، فشعر الدوق عند ذلك وكأنه في ميدان لسباق الخيل وقد فاز على جميع المتبارين. فتابع يقول: «إذاً لقد اتفقنا على الرحيل في صباح الغد إلى لندن. سأبلغ سكرتيري الخاص لأن يعتذر

من تلك الدعوات الكثيرة التي وصلتنا، وأن يشرح لهم بأننا مرتبطان بأمور هامة في بريطانيا.»

فقالت فيليسا: «من المؤكد أنها ستكون هامة بالنسبة إلي، لأنني متشوقة جداً... لأستعرض كل ما في داخل القصر.»

فأجاب الدوق: «من المثير جداً أن أريه لك. لكن الآن، دعينا نقرّر الأشياء التي يمكننا أن نقوم بها لهذا اليوم.»

سألته فيليسا: «ما الذي تريد أن تقوم به؟»

«لنركب العربة إلى الأسواق، حيث ستساعديني في اختيار الأشياء التي أريد شراءها.»

«هذا أمر مثير جداً!»

«سأطلب أن تجهز العربة في الحال بينما أنت تهيئين نفسك.»

هتفت: «سأذهب فوراً.» وقفت وهي تبتسم ابتسامة مشرقة ثم أسرعت تدخل إلى المنزل بطريقة مختلفة تماماً عن التي خرجت بها.

فكر وهو يتابعها بنظراته، بأنه يخشى أن تفلت من يديه وتبتعد عند بدلاً من أن تقترب منه أكثر. فسأل نفسه: كيف سيمكنني أن أجعلها تحبني؟

وخشي لأول مرة في حياته، أن يكون الخاسر.

وعاد يقول لنفسه، إنه أمر لا يصدق، فبعد كل النساء اللواتي أعجبن به، يجد نفسه عاجزاً على أن يلفت نظر فتاة.

انه يعلم أن خوف فيليسا من الرجال ليس السبب الوحيد ليجعلها مختلفة عن بقية النساء، فقد كان متأكداً وبشدة بأنه لم يسبق له ان صادف امرأة مثلها ذات أهداف وتطلعات مختلفة.

ولأول مرة أيضاً، تساءل إن كان هو نفسه جدير

بالنساء، وهو السؤال الذي لم يطرحه يوماً على نفسه.

إن حياته العابثة واللاهية، التي جعلته يكسب منها لقب الجريء، كانت أبعد من أن تجعله يحظى بفتاة في أخلاق فيليسا.

شعر أنه وإذا أراد أن يفوز بها كما يفوز عادة في كافة الميادين، يحتاج إلى شيء أسمى وأنبل في علاقته معها.

فبالنسبة لفيليسا، وبعكس أية امرأة أخرى ممن عرفهن، مركزه الاجتماعي وغناه وشهرته في أندية سباق الخيل والرياضات المتنوعة، لم تكن تعني شيئاً كثيراً لها، بل ما كان يهمها شخصيته المثالية والصورة التي رسمتها له بأنه فارسها النبيل المغوار.

فكر أنه ولبقية حياته، عليه أن يتوقع منها أشياء كثيرة، وعليه أن لا يخذلها، لكنه أدرك أيضاً، أنه طالما ستحبه كما يحبها، فهي لن تخيب أمله.

وعاد بعين الخيال إلى حياته السابقة ليجد بأنها لم تكن مبنية على أسس متينة، واستمراره بها، كان سيزعزع كل ما توهم بأنه بناه لنفسه.

ثم تطلع إلى المستقبل، فأدرك أنه إذا خلا من فيليسا ومن حبه لها، سيكون حتماً إنساناً يحتاج إلى الحنان الذي لا يمكن أن تؤمنه واحدة سواها.

فقال لنفسه بعزم وقوة: يجب أن أفوز بها! يجب!

* * *

توجّه الدوق وفيليسا إلى البوا بالعربة، ثم تناولا طعام الغداء الذي وجدته ألذّ وأطيب ما ذاقته في حياتها.

لكنهما تناولا هذه الوجبة في حديقة منزله الرائعة تحت ظلال شجرة باسقة الأغصان، وذلك بناء على رغبة الدوق شخصياً.

لقد أحضر الخدم أطباق الطعام الشهية التي أعدها طبّاخ الدوق المتفوّق.

فقالت فيليسا بعد أن أثنت على الطعام: «ماذا يفعل هذا الطباخ عندما لا تكون هنا؟»

ابتسم الدوق قائلاً: «أعتقد أنه يأكل الطعام الذي يحضره، لقد سمن أكثر من زيارتي السابقة إلى باريس!»

«لا بدّ وأن الأمر قد يكون مملاً له، عندما لا يعدّ الطعام لك.»

أجابها الدوق: «إنه من دون شك يلاحق أية امرأة جميلة.»

«أهذا كل ما يريد الرجال أن يفعلوه؟»

شعر الدوق أنه هناك دافعاً ما من وراء طرحها لمثل هذا السؤال، لذا فقد أجاب: «من الطبيعي جداً أن يريد الرجل المرأة في حياته، والعكس بالعكس.»

«إذاً، لماذا لم تتزوج لغاية الآن؟»

فقال الدوق: «يمكنني أن أجيب عن هذا السؤال ببساطة، لأنني لم أجد بعد المرأة التي أريدها.»

توقف ليفسح أمامها المجال بقول أي شيء، لكنها وحين بقيت صامتة، تابع يقول: «أعتقد أن كل شخص يأمل بأن يجد الشريك المناسب، والذي سيجعله سعيداً حتى آخر أيام حياته. هذا، وإذا كنا صريحين مع أنفسنا، هو ما نفتش عنه جميعنا.»

فسألته فيليسا: «هل تعتقد حقاً... أن هناك رجلاً... في هذا العالم... مناسباً لي؟»

أجاب الدوق بحزم: «بالطبع! كما انني متأكد من ذلك.»

«لكن لنفترض... إنني لم أقابله؟»

«هنا يجيء دور القسمة والنصيب كما يقولون، فهي تجمع الناس ببعضهم في الوقت المناسب.»

فقالت فيليسا: «إنك تجعل الأمر يبدو بغاية البساطة، بينما أجده أنا صعباً جداً، فغالباً ما يختار الناس الأشخاص غير المناسبين.»

أجاب الدوق: «أعتقد أن مثل هذه الأمور تحصل، عندما يتصرفون بسرعة، فللحياة طريقة توجهنا بها في الاتجاه الصحيح، فقطلو أننا نفسح المجال لها. إن القرارات السريعة كما الأفعال السريعة، تعتبر عادة خطأ كبيراً.»

فقالت له فيليسا: «أعتقد هنا أنك تحاضر لي.»

اعترف الدوق قائلاً: «ربما، لكن في الوقت نفسه، إنني أتكلم بصورة منطقية، وهذا ما ستتأكدين منه عندما تصبحين أكبر سناً.»

«أود من كل قلبي أن أصدقك، لكن ما الذي قد يحدث لو انني قابلت حقاً هذا الرجل، وهربت منه بسبب خوفي؟»

فقال الدوق: «لن أمانع لو أننا تشارطنا في ذلك، فماذا ستمنحينني لو أنني فزت عليك؟»

سألته فيليسا بجدية لكن ساخرة: «هل أنك حقاً تشجعني على فعل مثل هذه الأفعال، فلو علمت مديرة المدرسة بذلك لأصابها خوف شديد.»

«سآخذك معي إلى ميدان سباق الخيل، وعندها نرى من الرابح.»

«لكنك قبل قليل، طلبت مني أن اشارط على رجل... وهذا أمر يختلف جداً!»

أجاب الدوق: «لأنه سيشارك في هذا السباق، والجائزة ستكون أنت.»

فكر أن مثل هذه الفكرة قد تخيفها، لكنها أخذت تقهقه ضاحكة، ثم قالت: «وهل ستسلمني إليه فوق طبق ذهبي؟»

ضحك الدوق من قولها، لكنه شعر مع ذلك، بأنه لم يخطر ببالها ولا للحظة واحدة، انه سيكون الرجل الذي سيشارك في السباق، وإنه بنظرها لا شيء سوى الوصي عليها.

تابعا يتحدثان بأمور مختلفة حتى بعد انتهائهما من تناول طعام الغداء، بينما كانت أشعة الشمس تنبعث من بين أغصان الشجر لتضفي على شعر فيليسا لوناً رائعاً.

شعر الدوق أنه وكلما نظر إليها، تبدو أكثر جمالاً من اللحظة السابقة، وكان يعلم بأنه سيصعب عليه أن يراها يوماً بعد يوم دون أن يبوح لها بحبه.

أخذا يتكلمان بالأشياء التي سيقومان بها في بريطانيا، لكنه كان يفكر بها وبما قالته مديرة المدرسة بخصوصها: «إنها في غاية الذكاء والحساسية لأن تمضي بقي عمرها داخل جدران المدرسة الداخلية.»

فأدرك أن مثل هذه الفتاة ستكون له الشريكة التي قد تملأ عليه حياته الفارغة والمملة أكثر من أي امرأة أخرى.

وبقوة ذكائها، ستساعده في المراكز التي يشغلها بصفته رئيساً على العائلة، وبمنصبه الذي ورثه عن أجداده في بلاط الحكم.

وعاد يكرّر على نفسه بعزم: يجب أن أساعدها لتتغلب على مخاوفها هذه.

كانت قد أصبحت الساعة الثالثة والنصف، عندما جاءه الخادم برسالة فوق طبق فضي.

حدّق بها للحظات قليلة وقد خشي أن تكون من الكونتيسة أو من أية امرأة أخرى. لكنه لاحظ توقيع الختم على الظرف، ففض الرسالة وقرأها، ثم قال للخادم: «أبلغ المبعوث، بأنني سأزور حضرته بعد نصف ساعة.»

انحنى الخادم له باحترام وعاد من حيث أتى.

فقال الدوق لفيليسا: «لقد اغتصب لويس فيليب السلطة بعد الثورة في العام الماضي، وأنا أعرفه منذ زمن بعيد حين كان دوق أولينز، وها هو الآن يطلب رؤيتي قبل أن أغادر باريس.»

«هذا يعني أنك يجب أن... تذهب إليه الآن.»

أجابها الدوق: «وهل لي خيار آخر. على العموم فأنا لن أتأخر.»

همست بصوت ضعيف: «هل يمكنني أن أذهب معك؟»

فقال الدوق: «أعتقد أنه من الخطأ أن نفعل ذلك، لأنني أعتقد بأن الملك يريد أن يتكلم في السياسة، فإذا ذهبت معي، وبما أنه رجل فرنسي، سيرى نفسه يبتعد عن الكلام في السياسة ليمتدحك وليطري على جمالك.»

ارتعدت فيليسا من كلامه وقالت: «سأبقى هنا.»

أجابها الدوق: «حسناً، وسأحاول أن أعرف نوعية مسرح الباليه لهذه الليلة، فإذا وجدته من النوع الذي يعجبك، نتناول العشاء باكراً هذه الليلة ونذهب لرؤيته بعد ذلك.»

صفقت فيليسا بفرح وقالت: «هل حقاً يمكننا أن نقوم بذلك؟»

«طبعاً.»

عادا معاً إلى داخل المنزل، وصعد الدوق إلى الطابق الأعلى ليحضر معطفه، وعندما عاد وجد فيليسا تنتظره في ردهة المنزل، فقال لها: «لقد كتبت رسالة للسيدة غوتيه، أقول لها فيها بأننا استمتعنا كثيراً بحفلتها الليلة الماضية.»

فسألته بسرعة: «هل يجب أن أكتب واحدة أنا أيضاً؟»

أجابها الدوق: «أتصوّر أنها ستقدّر منك ذلك.»

«إذاً سأكتب لها في الحال.»

جاء الخادم في تلك الأثناء وقال: «إن العربة جاهزة أيها الدوق، كذلك السائس.»

ناول الدوق رسالته للخادم قائلاً: «قل للسائس ان ينتظر واحدة أخرى، والتي ستعطيه إياها الآنسة فيليسا بعد لحظات قليلة.»

وعندما انتهى من كلامه، ناوله خادم آخر قبعته وقفازتيه والعصا العاجية، فأخذها منه ثم ابتسم لفيليسا قائلاً: «أعدك بأنني لن أتأخر. عندما تنتهين من كتابة رسالتك، اذهبي واختاري من المكتبة بعض الكتب التي تودين أن تأخذينها معك إلى بريطانيا.»

قالت فيليسا بحماس: «إنني متأكدة من أنني سأجد كل ما أريده. هل يمكنني أن آخذ الكمية التي أريدها؟»

«يمكنك أن تأخذي ما في المكتبة من كتب إذا شئت!»

ضحكت فيليسا، ففرح قلب الدوق واعتبر ضحكتها لحناً بديعاً. ثم مشت معه إلى الخارج، ووقفت تراقبه وهو يصعد إلى العربة، كانت ترغب في أن تبقى تراقبه إلى أن يختفي عن نظرها، لكن أحدهم كان قد قال لها ان ذلك مجلبة لسوء

الحظ، لذا وقبل أن تتحرك العربة باتجاه البوابة الحديدية، دخلت المنزل إلى المكتبة مباشرة.

أغرتها الكتب كثيراً، لكنها قرّرت أن تكتب رسالة شكر للسّيدة غوتيه أولاً. فجلست على كرسي وإلى طاولة المكتب الضخمة، تفتش بنظرها على أوراق الكتابة.

وبينما كانت تفعل ذلك، فُتح باب المكتبة ودخل أحد الخدم. ثم قال: «لو سمحت يا آنسة، هناك معلمتان جاءتا من المدرسة الداخلية وتطلبان مقابلتك؟»

هتفت فيليسا: «معلمتان! طبعاً، طبعاً سأراهما!»

«لقد أرشدتهما إلى الصالة يا آنسة.»

أعادت فيليسا ورقة الكتابة إلى مكانها وقامت بسرعة.

تساءلت مَنْ من المعلمات قد تكونان، وأملت أن تكون واحدة منهما المعلمة مارغريت لأنها كانت تحفظ لها محبة خاصة. فكرت كم أنها مشتاقة إلى المدرسة وإلى معلماتها، وكم أنها تتألم لفراقهن جميعاً خاصة وأنها ستسافر إلى بريطانيا غداً.

أسرعت تخرج من المكتبة باتجاه الصالة، وعندما فتحت الباب، وجدت معلمتين تقفان أمام إحدى النوافذ، فهتفت فيليسا: «إنني سعيدة جداً لرؤيتكما! سعيدة لأنكما جئتما هذا اليوم، لأننا غداً...»

توقفت فجأة عن متابعة كلامها، فقد التفتت المعلمتان نحوها، لتجد بأنهما غريبتان عنها، كما أنها لم يسبق لها أن رأتهما مرة في حياتها.

بقيت لبضعة لحظات تحدّق بدهشة، لكنه بدا لها بعد ذلك، أن وجه إحداهما مألوف جداً لديها.

وقبل أن تتمكن من القول بأنها لا تعرفهما، تقدمت المعلمة الأطول قامة، ولاحظت فيليسا، بأن هناك تشابهاً غريباً بينها وبين شخص كانت قد شاهدته من قبل.

«لا تقومي بأية حركة، يا قريبتي فيليسا!»

صدر عن فيليسا صرخة خافتة، إن من كان يكلمها هو دنيس أرلين، وقد تنكر بزي امرأة وقد بدا مخيفاً للغاية.

«ما الذي تفعله؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟» هذا ما بدأت تقوله، لكنها وقبل أن تتمكن من إضافة أي كلام آخر، كان قد أصبح إلى جانبها ليسمك بيدها بقوة. ثم قال: «اهدإي! فإذا أحدثت صوتاً، أو ناديت على الخدم، فإنني سأؤذيك كثيراً!»

لم يقل الكثير، لكن الطريقة التي تكلم فيها، جعلت فيليسا تشعر بأن حنجرتها قد قضي عليها نهائياً.

أخذ قلبها يخفق بشدة وغمرها خوف لم يغمرها يوماً في حياتها بعدما هربت من والدها القاسي.

فقال دنيس أرلين: «إن المسؤول عنك تمكن مرة من أن يعرقل خططي ويمنعني من الزواج بك، لذا فإنني أحاول مرة أخرى، وسأنجح في ذلك الآن.»

«ما هذا الذي تقوله؟» تمكنت فيليسا أخيراً من التكلم.

أجابها دنيس أرلين: «لقد ترك الدوق المنزل، وسيتغيب لبعض الوقت، لكن متى عاد، ستكونين قد أصبحت زوجتي، ولن يتمكن عندها من القيام بأي شيء!»

أطل الخوف من عيني فيليسا، عندما وجدت المعلمة الأخرى تبعد حجابها عن وجهها، ولتجدها هي الأخرى رجلاً متنكراً.

وكأنما فهم دنيس أرلين ما يجول بفكرها، قال:

«دعيني أعرفك إلى القاضي أوستن جونسون، وهو مؤهل لأن يعقد القران بين اثنين يا فيليسا.»

فقالت بشجاعة لم تكن تعلم بأنها تملكها: «إنني... إنني لن أتزوج منك... ولن يجبرني... شيء!»

ابتسم أرلين ابتسامة غير مطمئنة وقال: «هذا ما اعتقدت بأنك قد تقولينه، لكن هناك طريقة جيدة لأقنعك فيها.»

أخرج من جيب معطفه الأسود مسدساً صغيراً، فصرخت فيليسا: «يمكنك... أن تقتلني... لكنني أفضل الموت على أن... أتزوج منك.»

تكلمت باضطراب بسبب خوفها الشديد منه، لكن ومع ذلك، كان هناك عزماً وتصميماً في الطريقة التي تكلمت بها، جعل من صوتها يبدو أشجع من ذي قبل.

ابتسم دنيس أرلين من جديد وقال: «لم أقصد أن أقتلك أنت بالذات، فأنت تتمتعين بجمال شديد لم يكن لأحد لأن يتخلى عنه بهذه السهولة. لا! الشخص الذي أنوي قتله هو الدوق!»

صرخت فيليسا بخوف، فشدّ دنيس أرلين أكثر على يدها خوفاً من أن تلفت انتباه الخدم.

وتابع: «نعم، الدوق! إذا لم تتزوجي مني، سأنتظر عودته وعندما يدخل هذه الصالة، سأقتله على الفور!»

فقالت فيليسا لاهثة: «لا يمكنك... أن تقوم بمثل هذا الشيء!»

أجابها دنيس أرلين: «يمكنني وسأقوم به! لقد أعددت خطتي بدقة، فإذا لم أبعث برسالة إلى رجالي الذين ينتظرون في الخارج خلال عشرين دقيقة، عندها وقبل أن يعود الدوق سيهددون الخدم وسيقولون لهم ما حجم

المخاطر التي قد يسببوها لو أنهم حذّروه قبل أن يدخل إلى هذا المكان.» ثم تابع بسخرية: «إذاً، فهو سيدخل دون أن يخامره أي شك إلى الفخ الذي أعدّته له. سأقتله، وبينما سيلقى أرضاً ودمائه تسيل منه، سأهرب بك وسأتزوجك عنوة، أو ربما قد اشتقت للضرب بالسوط.»

لاحظ عليها مدى ارتعاشها واضطرابها فتابع يقول: «نعم، أعرف تماماً كيف كان يعاملك والدك، ولماذا أرسلك الدوق بسبب ذلك إلى المدرسة الداخلية في باريس.»

قهقه ضاحكاً قبل أن يتابع: «اعتقدت أنك ستفرحين لرؤية معلماتك، لذا فها نحن زوجك المقبل، والقاضي الذي سيزوجنا.»

كانت فيليسا طوال الوقت تنظر إليه بهلع شديد، فقال دنيس أرلين: «لك الاختيار الآن، فهل تتزوجينني دون أي ممانعة، أم أقتل الدوق أمام عينيك؟»

انتظر جوابها، لكن فيليسا شعرت وكأنها تحوّلت إلى حجر أخرس، وكان من الصعب عليها لا أن تجاوب فقط، بل لأن تتنفس بعمق.

لم تكن تصدق ما يجري أمامها، لكنها أحست وكأنها تعاني من كابوس مخيف لا يمكنها أن تستيقظ منه.

عاد يشدّ دنيس أرلين على يدها بقوة، بينما كان يمسك بيده الأخرى مسدسه الذي سيقتل به الرجل الذي كان كريم الأخلاق معها، الرجل الذي وثقت به، والذي وعد بحمايتها.

فأدركت أنها في وضع لا يمكن للدوق أن يساعدها فيه، لكن بإمكانها هي أن تساعده.

كيف ستمسح له بالموت؟ كيف ستسمح لهذا الرجل الشرير

بأن يقتله عندما يدخل هذه الغرفة غافلاً عن كل شيء؟

ورأته بعين الخيال يسقط أرضاً والدماء الحارة تسيل من قميصه الأبيض.

فسألها دنيس أرلين من جديد: «حسناً، على ماذا وقع اختيارك؟» ثم حوّل نظره إلى القاضي، الذي كان في يده كتاب خاص، فقال عند ذلك بسخرية: «أعتقد أنني أعرف الجواب على سؤالي.»

وبيأس شديد، أجبرت فيليسا نفسها على الكلام قائلة: «أرجوك... لا يمكنك... أن تفعل هذا... إنه عمل شرير... إنها جريمة! كما انك ستمسك وستشنق من بعد ذلك.»

فقال دنيس أرلين بحدة: «لن يمسكني أحد، لكن لو حصل ذلك حقاً، فإن ثروتك ستؤمن لي أفضل المحامين. ففي فرنسا، حتى القضاة يمكن رشوتهم، خاصة إذا كان المبلغ كبيراً.»

فقالت فيليسا: «إذا كان كل ما تريده... هو المال... سأعطيك... أي مبلغ تريد... شرط ألاّ تقتل الدوق!»

صفّر دنيس أرلين بدون مبالاة وقال: «هكذا إذاً! كان علي أن أتوقع بأنك ستميلين للدوق، كما يحصل مع كل امرأة حين تقابله، لكنه لن يتزوجك، لأنه رجل ثري من دونك، لذا عليك أن توافقي على الزواج مني!»

صرخت فيليسا: «إنني... أكرهك!»

أجابها بخبث: «أجدك جذّابة جداً، لكن وبالرغم من انني لا أتوافق معك بالرأي، فأنا مستعد للزواج من امرأة شبيهة بالجمل طالما انها ستمنحني مبلغ سبعمائة ألف من الجنيهات الذهبية!»

لم تتكلم فيليسا، لكن القاضي تكلم لأول مرة حين قال: «إننا نضيع الوقت يا أرلين.»

فسأله دنيس أرلين: «هل بدأت تشعر بالتوتر؟ حسناً، أطمئنك وأقول لك، بأن الدوق لن يعود قبل وقت طويل.»

ثم عاد ينظر إلى فيليسا وقال: «هيا قرّري، هل ستتزوجينني، أم أنتظر هنا لأقتل الجريء؟ ستكون نهاية مأساوية لحياته، ولكن هذا ما يستحقه.»

أدركت فيليسا من الطريقة التي تكلم بها، بأنه سيتمتع كثيراً بقتل الدوق.

إنها لا يمكنها أن تسمح بقتله، لا يمكنها أن تراه ينزف على الأرض، فعندها لن يعود قادراً على حمايتها من الرجال الذين يخيفونها كما هذا الرجل الذي يقف أمامها وهو يشهر مسدسه بيده.

وأدركت أنه لا خيار آخر لها، وعليها أن تفعل جهدها لانقاذ حياة الدوق، فلقد أنقذها مرتين متتاليتين، والآن أتى دورها كي تنقذه ولا تجعله يموت بسببها.

عاد يسألها دنيس أرلين بقسوة: «هيا الآن، ماذا قرّرت؟»

وكأنما جاءت كلماتها من أعماق الظلمات المخيفة، أجابت فيليسا بصوت مرتجف: «سأتزوج... منك.»

الفصل السابع

أخذ الدوق يفكر بفيليسا وكم أنها بدت جذّابة صباح هذا اليوم بينما كان يبتعد عن الشانزليزيه.

لقد أدرك أنها قامت بمجهود كبير كي لا تجعله يعرف كم كانت منزعجة ومتوترة مما جرى في الليلة الماضية.

لقد شعر بالحقد الشديد تجاه دنيس أرلين وتساءل كيف يمكنه أن يعاقبه بسبب تصرفه القبيح هذا ومن دون أن يسبب أية فضيحة تذكر.

كان يدرك أيضاً، أنه لو تحدّاه في المبارزة، قد يتورط اسم فيليسا في الموضوع، والحل الأنسب لهذه المشكلة، هو أن يتزوج منها وتصبح زوجته الشرعية.

عند ذلك، سيتركها من يسعى وراء ثروتها في شأنها، لكنه يبدو أنه سيقطع شوطاً كبيراً قبل أن يتمكن من الوصول إلى قلبها لتحبه كما يحبها، ومع الوقت لن يعود أحد يناديه بلقب الجريء.

انتبه فجأة، أن هناك جواداً يعدو إلى جانب عربته، ولدهشته الشديدة، وجد أن راكبه كان يرتدي الزي الخاص بحاشيته وخدمه، وقد كان ينادي على السائس قائلاً: «توقف! توقف!»

التفت السائس نحو مصدر الصوت، ثم شدّ رسن العربة ليوقف بها الجياد.

فسأله الدوق: «ماذا هناك؟ ما الذي يجري؟»

مال راكب الجواد قليلاً ليتمكن من التكلم مع الدوق وقال: «لقد طلب مني رئيس غرفة الإسطبل بأن أوقفك أيها الدوق.»

فسأله الدوق بحدة: «ولماذا طلب منك ذلك؟»

«لأنه وعندما خرجت من المنزل، جاءت معلمتان تطلبان رؤية الآنسة فيليسا.»

تمتم الدوق من بين أنفاسه: «معلمتان؟»

فتابع راكب الجواد: «إن الخادم الذي أدخلهما الصالة، لم يرتح إليهما لأنهما كانتا تفوحان منهما رائحة غريبة.»

تصلبت أعضاء الدوق وتوجس شراً، ثم أمر السائس: «هيا، عد بي بأسرع ما يمكن!»

أسرع السائس ينفذ الأمر، ونقلت الجياد الدوق إلى المنزل بسرعة أكبر من التي غادر بها.

لاحظ الدوق عند دخول العربة عبر البوابة الحديدية، أنه مراقب من قبل ثلاثة رجال قساة الوجوه كانوا يقفون قرب عربة مقفلة على الطريق.

تذكر أنها تشبه العربة التي وصفتها له مديرة المدرسة والتي كانت تنتظر في الحقول استعداداً لخطف فيليسا عندما تخرج مع صديقاتها في النزهة اليومية.

أوقف السائس العربة أمام باب المنزل، وخرج الدوق منها بسرعة. كان رئيس غرفة الإسطبل ينتظره على أحرّ من الجمر والقلق يبدو بوضوح من وجهه.

قال بصوت منخفض: «اعتقدت أنه ينبغي مني أن أرسل في طلبك في الحال أيها الدوق.»

أيّده الدوق قائلاً: «لقد قمت بعين الصواب.»

ومشى بعد ذلك بعزم وطيد إلى ردهة المنزل، ثم توقف ليسأل: «هل الآنسة داخل الصالة؟»

«نعم أيها الدوق.»

فقال الدوق: «سأدخل الصالة من الحديقة، وانتظر أنت هنا لأنني قد استدعيك.»

طأطأ رئيس غرفة الإسطبل برأسه بينما خرج الدوق إلى الحديقة.

بدأ القاضي يتلو نص الزواج بصوت حاد واجش.

فقال الكلمات على نحو متقطع وكأنه نسي ما قد يقال في مثل هذه الأمور، فأدركت فيليسا بل تأكدت أكثر، بأن الرائحة التي تفوح منه ومن دنيس أرلين غير طبيعية، مما جعل الخوف يزيد عندها أكثر من السابق.

إنها تتزوج الآن من رجل مستعد في أية لحظة لارتكاب الجريمة، وكل ذلك لأجل أن يحصل على ثروتها، فهذا الرجل الذي تخافه وتشمئز منه، سيصبح بعد قليل من الوقت زوجها.

أخذت ترتجف ووجدت صعوبة بالغة بأن تقف هادئة دون حراك، لكن عقلها كان يعمل بوضوح كي تجد طريقة تمكنها من الهرب منه. كان دنيس أرلين لا يزال يمسك بيدها ويضغط عليها بقوة، بينما أمسك المسدس بيده الأخرى.

فتساءلت بجزع، هل إذا صرخت عالياً، سيسمعها الخدم ويسرعون إليها؟! عندها ستسنح الفرصة أمامها لكي تهرب من باب الصالة أو ربما من باب الحديقة إلى الدوق لتنذره بكل الذي يجري.

ثم فكرت بالذي قاله لها دنيس أرلين قبل الآن، فهناك رجاله ينتظرونه في الخارج، ومن دون شك مع عربة تمكنهم بالهروب بها، تماماً كما فعلوا الليلة الماضية، ولكن هذه المرة لن يعرف الدوق طريقاً لها.

شعرت بروحها تناجيه بلهفة كي يظهر فجأة ليساعدها، كما شعرت أيضاً، بقلبها يطير إليه على جناحي الطير ليخبره أنها في خطر شديد ويتوسل إليه لأن يعود إليها ليقضي على هذا التنين الشرس.

ثم قالت بينها وبين نفسها: لماذا لم أذهب معه؟

وفكرت انها لو انتظرته في أية غرفة من غرف القصر أو حتى في العربة نفسها، لما وجداها هذين الرجلين المتنكرين.

أخذ القاضي يتلو عقد القران بالصورة التقليدية قائلاً: «أيها الأحباء، لقد اجتمعنا اليوم هنا وأمام الشهود...»

فقاطعه دنيس أرلين بحدة: «احذف هذه! فلا شهود هناك سواك أيها الغبي!»

أذعن القاضي لكلامه وقلب صفحة الكتاب لكنه أضاع الصفحة المطلوبة.

فعاد يقول دنيس أرلين بحدة: «هيا! هيا!»

لو أن فيليسا لم تكن تشعر بمثل هذا الخوف، لأدركت أنه متوتر جداً، ويخشى حصول أي شيء في اللحظة الأخيرة ويمنع الزواج.

تكلم بحدة وقسوة، حتى أن فيليسا رأت مدى اضطراب القاضي.

حاولت عند ذلك أن تفلت يدها من يد دنيس أرلين،

فالتفت إليها وقال بشراسة: «اهدإي! فإذا واجهت أية مشاكل أخرى، لن أتزوج فقط منك، بل سأقتل الرجل الذي تعتقدين بأنك تحبينه.»

توقفت فيليسا عن محاولاتها وقد أدركت أنه يعني حقاً ما قاله. إنها وبالطبع تحب الدوق، وإلا ما الذي يدعوها إلى التضحية بالزواج من رجل متوحش كهذا كي لا يموت؟ لماذا كانت تشعر إذاً، ان الحياة بدونه مظلمة وكئيبة؟

لقد أحبته منذ أن أنقذها لأول مرة من والدها، لقد شعرت وقتها بالامتنان له، وكانت تفكر به باستمرار، لكنها لم تكن تعلم بأن ما تشعر به هو الحب!

أخذت الذكريات تتلاحق في مخيلتها وكأنها شريط سينمائي، وأحصت المرات التي كانا فيها معاً يتحدثان ويتناقشان بشتى الأمور.

شعرت بالأمان معه لأنها كانت تحبه، لقد أحبته أيضاً لأنها لم تخشَ جانبه كما هي الحال مع بقية الرجال.

أيقظها القاضي من أفكارها المتضاربة قائلاً: «أعيدي من بعدي...»

شعرت في هذه اللحظات بصوتها قد اختنق في حنجرتها ولم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة.

فكرّر القاضي بإلحاح: «أنا فيليسا...»

فقال دنيس أرلين بقسوة: «قولي ذلك أيتها الغبية! وإلا سأدعك تشاهدين الأسوأ!»

ثم ضغط أكثر على يدها، فصرخت متألمة، لكنها سمعت بعد ذلك صوت رجل يسأل بقوة: «ما الذي تحاولان فعله؟»

أفلت دنيس أرلين يده من يد فيليسا والتفت إلى الوراء.

صرخت فيليسا عندها بجزع واضطراب: «انتبه! سيقتلك!»

كان دنيس أرلين في تلك الأثناء قد وجّه المسدس نحو الدوق، عندها ودون أن تعطي للأمر لحظة تفكير، رمت فيليسا بثقلها فوق يد دنيس أرلين، فانطلقت الرصاصة باتجاه الباب. وصرخت: «لن أدعك تقتله! لن أدعك.»

ثم سمع صوت رصاصة أخرى تنطلق لتلقي دنيس أرلين على الأرض وهو يصرخ متألماً.

أسرع الدوق يتقدم في الصالة باتجاه الرجل الجريح، بينما أخذت فيليسا تقول باضطراب: «اعتقدت... أنه سيقتلك... اعتقدت أنك ستقتل!»

عندها فتح باب الصالة بقوة ودخل منه رئيس غرفة الإسطبل وكل ما في المنزل من خدم.

لكنهم توقفوا فجأة ليحدقوا بدنيس أرلين الملقى على الأرض والدماء تسيل من قدمه.

فقال الدوق لفيليسا: «لقد أنقذتني يا عزيزتي، وأنقذت نفسك!»

ثم التفت إلى الخدم وقال: «خذوا هذا الرجل من هنا، وضعوه في تلك العربة المقفلة التي تنتظره في الخارج، واطلبوا من رجاله أن ينقلوه إلى أقرب مستشفى.»

وعندما تقدم رئيس غرفة الإسطبل مطيعاً، كان القاضي يقف وهو في حالة الارتجاف الشديد، فقال بهلع: «لم يكن الذنب ذنبي، لقد طلب مني أن أفعل ذلك، كما انني لم أرتكب أي خطأ.»

فأجاب الدوق: «المسألة ليست كما تعتقد أنت.»

ثم التفت إلى رئيس غرفة الإسطبل وتابع يقول: «خذ هذا

المخلوق البشع إلى أقرب مخفر، وقل للمسؤول هناك، أنك وجدته هنا متنكراً بزي امرأة وبأنه كان ينوي سرقتي. وبما أنه لم يتمكن من سرقة أي شيء، سيخلى سبيله لكنه سيبقى تحت المراقبة، ولا أعتقد بأن في ذلك تجربة مسرّة له.»

ابتسم رئيس غرفة الإسطبل باشمئزاز وقال: «إن هذا الأمر سيجعله حتماً يكون أكثر انتباهاً في المستقبل.»

فقال الدوق بجفاف: «لنأمل ذلك.»

نقل الخدم دنيس أرلين إلى الخارج وهو يئن ويتوجع من إصابته، بينما دفع رئيس غرفة الإسطبل بالقاضي دفعاً وراء الجميع.

وعندما أصبح الدوق وفيليسا بمفردهما، قال لها: «لقد انتهى كل شيء، أما بالنسبة لدنيس أرلين، فهو إما سيموت متأثراً بجراحه، أو قد يعيش بقية حياته أعرج، لذا، لا داعي لك لأن تخافي منه بعد اليوم.»

فتمتمت فيليسا: «لقد كان... ينوي حقاً... أن يقتلك... فلو انني... لم أوافق على زواجي منه...»

«هل كان ذلك يهمك إلى هذا الحد؟»

رفعت رأسها ونظرت إليه، وكأنها لا تصدق أنه قد طرح عليها مثل هذا السؤال الغبي، فلاحظ بأنها لم تكن تبكي بالرغم من شحوب لون وجهها.

التقت نظراتهما، ففكر الدوق أن هناك تعبيراً آخر في وجهها لم يكن قد شاهده قبلاً.

فقال: «لقد أنقذتني! وأريد أن أشكرك يا فيليسا.»

لم تقل شيئاً، فتابع يقول بلطف: «أحبك! لا تدري كم أحبك! لكنني اعتقدت أنك لن تسمحي لي بقول ذلك.»

«أنت... تحبني؟!»

أجابها الدوق: «لا أدري كيف يمكنني أن أقول لك كم أحبك، لكن يا عزيزتي يجب ألاّ تخافي مني.»

أجابت فيليسا: «إنني لست خائفة منك، ولقد أدركت... عندما كان ذلك الرجل الكريه... يريد الزواج مني ان السبب من عدم خوفي... وأنا معك... يعود لأنني... أحببتك.»

فهتف الدوق قائلاً: «آه يا عزيزتي، ويا أغلى شيء عندي، سأعتني بك وسأحميك، ولن أجعلك تخافين من أي شيء بعد اليوم.»

قالت فيليسا بعذوبة: «أطلب منك أن تسامحني لأنني تصرفت... بغباء... ولأنني لم أفهم شعوري تجاهك من قبل.»

أجابها الدوق: «يسعدني أن أسمع منك هذا، لكن يا عزيزتي، كيف حصل كل هذا في اللحظة التي تركت فيها المنزل؟»

أجابت فيليسا: «لقد وصلا... بعد خروجك بلحظات... وأشك أن أحداً من خدمك كان قد أبلغهم بأنك ذاهب لزيارة لويس فيليب.»

أيّدها الدوق قائلاً: «هذا ما أشك فيه أنا أيضاً، فمن الصعب على أي رجل فرنسي أن يرفض الرشوة.»

ثم ضحك ليتابع قائلاً: «على أية حال، لن يتمكن دنيس أرلين في أن يرشو أو يهدّد أحد لفترة طويلة، وذلك بسبب شجاعتك يا عزيزتي. كما اننا سنكون قد تزوجنا قبل أن يتمكن من المشي على قدميه مرة أخرى.»

اتسعت عينا فيليسا وكأنها لا تصدق ما سمعته منه، فأسرع يقول: «هل ستتزوجين مني؟ إذا

رفضت، سأكون تعيساً ويائساً، كما انني قد أموت قهراً.»

«هل أنك حقاً... تريدني؟»

ابتسم الدوق وقال: «نعم، كما انني سأبقى على مدى السنين وأنا أقول لك أحبك. أحبك، إلى أن تشعري بالملل والضجر من ذلك.»

ضحكت كعادتها تلك الضحكة التي يغرد لها قلب الدوق وقالت: «كنت أعتقد دائماً... انك أنت من سيمل ويضجر بسهولة، وليس أنا.»

أجابها الدوق: «طالما أنت معي، فأنا لن أشعر بالملل. آه يا عزيزتي، هناك العديد من الأشياء التي تنتظرنا لنقوم بها معاً، ولطالما كنت أفكر متى أصبحنا في القصر، كم وكم قد تساعدينني بأفكارك النيرة.»

«هل يمكنني... أن أقوم بذلك؟»

«دعيني أشرح لك أمراً هاماً، وهو كيف أنك تمكنت من تغيير أفكاري وكيف تمكنت أخيراً من تغيير شخصيتي.»

هتفت فيليسا قائلة: «أريدك كما أنت، ذلك الفارس الذي ينقذني دائماً.»

أجابها الدوق مبتسماً: «لكنك أنت أيضاً أنقذتني وعلي أن أعترف بذلك، فأنت بنظري طيري الحارس، الطير الذي سيرشدني إلى الطريق الصحيح حتى آخر يوم من عمري.»

صرخت فيليسا بسعادة وقالت: «كيف يمكن أن تسمعني مثل هذه الأشياء الجميلة؟»

أجابها الدوق: «كما أنه لدي الكثير لأقوله لك، لكن يا عزيزتي، يجب أن أبقى على وعدي بخصوص الزيارة، إنما هذه المرة ستذهبين معي.»

ثم ابتسم لها بلطف وتابع: «من الآن فصاعداً، لن أجعلك تغيبين عن ناظري. ستذهبين معي إلى حيث أذهب، لأن خوفك لا يقاس بخوفي إذا تركتك بمفردك.»

«أريد... أن... أذهب معك... هل تعلم أن شيئاً غريباً قد حصل لي.»

فسألها الدوق: «وما عساه يكون؟»

«ربما قد أكون على خطأ، لكنني أعتقد بأنني لن أخشى جانب الرجال كما كنت في السابق.»

«ولما تقولين هذا؟»

«لأنني لم أكن خائفة على نفسي عندما حاولت أن أمنع ذلك الرجل من قتلك، بل كنت خائفة عليك! لقد رميت بثقلي فوق يده ولم أشعر بأي نوع من الخوف.»

فقال الدوق بهدوء: «أعتقد يا عزيزتي بأن الحب هو الذي خفف من خوفك، وأنا ممتن لهذا الحب كل الامتنان.»

أصرّت فيليسا قائلة: «إنني متأكدة من أنني على حق. إنني متأكدة بأنني لن أشعر بالخوف والجزع من أي شيء بعد اليوم... لكن الخوف قد يعود إلي لو... أنك توقفت عن حبك لي.»

فقال الدوق: «هذا أمر لن يحدث بتاتاً إلى أن أموت. إنني أشعر بسعادة غريبة لم أعرف طعمها من قبل وذلك منذ أن أحببتك.»

أجابت فيليسا بلطف: «هذا ما أشعر به بالضبط.»

«اذهبي الآن يا عزيزتي وارتدي أفضل معطف لك.»

«هل يجب أن أغيّر من ملابسي؟»

نفى الدوق بحركة من رأسه وقال: «إنك تبدين رائعة كما

أنت، فلو أطرى لويس على جمالك، سأشعر بالغيرة الشديدة.»

نظرت إليه نظرات ذات معنى ثم قالت: «اعتقد أنا من التي ستغار من... السيدات الجميلات اللواتي ينتظرنك في باريس... بل من سيدات الأرض كافة أيها الجريء.»

فقال الدوق: «أمر غريب حقاً، فعندما كنت في طريقي إلى القصر، فكرت أن اسم الجريء لا بد وأن يختفي وأن لا يعود له أي ذكر، لأن همتي ستفتر وسأصبح كسولاً، لدرجة أنك قد ترغبين بالهرب مني لتفتشي عن أي رجل آخر.»

أجابت فيليسا بعزم: «لن يكون هناك في العالم بأسره شخص آخر بدلاً منك! إن عيني لا تريان سوى رجلاً واحداً، ولا يهمني بما يلقّب!»

شعر الدوق بالسعادة تغمره أكثر فأكثر وقال: «هيا اسرعي الآن، فلا يجوز أن ندع لويس ينتظر أكثر من ذلك.»

خرجت فيليسا من الصالة لتصعد إلى الطابق الأعلى، وعندما أصبح الدوق بمفرده، تساءل هل ما جرى منذ ساعة حقيقة؟

كيف صوّر له عقله بأن فيليسا ستكون بأمان في المنزل؟ وكيف تمكنت من إنقاذ حياته بمثل هذه الطريقة الدراميتيكية التي شفتها من الخوف في نفس الوقت؟

لقد وجد أخيراً ما كان يبحث عنه طوال حياته، المرأة التي ستكون نصفه الآخر، امرأة نقية، طاهرة وبريئة، إنها لن تكون فقط زوجة ممتازة، بل والدة رائعة لأولادهما.

فتح باب الصالة في تلك الأثناء، وظهرت منه فيليسا وقد ارتدت معطفها الجميل، ثم سألته وكأنها ما زالت لا تصدق:

«هل هذا حقيقي... هل انك تحبني حقاً... وتريدني أن أصبح زوجتك؟»

أجاب الدوق بصوت عميق: «هذا حقيقي.»

«إنني لا أصدق بأنك اخترتني أنا بالذات من بين نساء العالم.»

أجابها الدوق: «لقد عرفت الكثيرات في حياتي، لكنني كنت دائماً أشعر بخيبة أمل، إلى أن التقيت بك.»

«إنك لم تعرفني بما فيه الكفاية، فلنفترض أنك وبعد قليل من الوقت...»

قاطعها الدوق قائلاً: «لقد عرفتك منذ التقيتك، وسنبقى معاً حتى الموت.»

ثم قال بينه وبين نفسه: سأسعى جاهداً ألاّ أخذلها. يجب ألا يخيب أملها بي.

قال لها: «إنك رائعة! وهناك الكثير لأعلمك إياه، لكن هيا، يجب أن نذهب الآن.»

* * *

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، وبعد أن انتهيا من تناول طعام العشاء، أخذا يتحدثان بالرحلة التي سيقومان بها صباح الغد.

قال الدوق: «لقد خططنا لأشياء كثيرة يا عزيزتي، لكنك لم تقولي بعد متى تريدين الزواج مني.»

أجابت فيليسا: «تعرف الجواب لذلك.»

سألها: «وما هو؟»

«سأتزوجك متى تريد، غداً، بعد غد، أو إذا شئت هذه الليلة!»

ضحك الدوق وقال: «أعتقد أنه من الصعب إتمام ذلك هذه الليلة، لكن إذا كنت توافقين، ومن ناحيتي لا أرغب في أن أستعجلك، سنتزوج حالما نصل إلى بريطانيا.»

«إنني ما زلت أعتقد بأنني أحلم.»

أجابها الدوق: «إذا كنت أنت تحلمين، فأنا أيضاً كذلك. أفضل ألاّ يكون حفل زفافنا كبيراً، وأن يتمّ في القصر.»

فقالت فيليسا: «هذا ما أريده أيضاً.»

«اعتقد أننا نحب الأشياء نفسها، لأننا نتوافق بالأفكار، كما هناك الكثير لأعلمك إياه في أمور هذه الحياة.»

«يسعدني أن أتعلم كل شيء منك.»

نظر إليها مبتسماً وقال: «سأعطي أوامري بخصوص زواجنا في اللحظة التي أصل فيها إلى القصر دون أي تأخير.»

صرخت فيليسا باضطراب: «يجب أن أنتظر ثوب الزفاف!»

أجابها الدوق: «عندما طلبته بعد ظهر هذا اليوم، أوضحت لهم، أنه إن لم يكن جاهزاً خلال يومين، سأرفض أن أدفع لهم ثمنه.»

فقالت له فيليسا متهمة: «هذا ابتزاز.»

«على العكس، إنها فرصة لهم بربح مضاعف وعدتهم به لو أنجزوه بسرعة.»

ضحكت فيليسا قائلة: «هل تدير أمورك دائماً على طريقتك الخاصة؟»

أجابها الدوق: «بالطبع! فأنا الفائز دائماً! والمرة الوحيدة التي خفت فيها في حياتي كلها من الخسارة، هي عندما اعتقدت أنني لن أنجح معك.»

«كيف كنت بذلك الغباء... حين لم أدرك بأنني أحبك طوال الخمس سنوات الماضية، عندما كنت في المدرسة الداخلية وأفكر بك كل يوم؟»

اعترف الدوق قائلاً: «يا ليتني أستطيع أن أقول بأنني كنت أنا أيضاً أفكر بك! فلقد نسيت تماماً تلك الفتاة الباكية والشاحبة اللون التي أبعدتها عن ذلك التنين المفترس.»

بعدما انتهى من كلامه، بدا عليه التفكير العميق، فسألته فيليسا: «بماذا تفكر؟»

«إنني لا أفكر سوى بك، وبزواجنا.»

«لا يهمني سوى أن أكون معك.»

«يجب أن نسمح لموظفي القصر بحضور الزفاف على أية حال، إنها فرصة مناسبة ليتعرفوا بك.»

وافقت فيليسا وقالت: «حتماً يجب أن يحضروا الزفاف. إنهم سيشعرون بالتعاسة لو أننا لم ندعوهم.»

«عرفت بأن هذا قد يكون شعورك.»

«لكن من الذي سيكون شاهداً على زفافنا؟»

«صديق عزيز علي يدعى هبرت بروهام، والذي أدين له بمبلغ كبير من المال.»

شعر بمدى فضول فيليسا من كلامه هذا فتابع يقول: «لقد تحداني بأنني يوماً ما سأقع في فخ الحب، بينما كانت متأكداً من ناحيتي بأن ذلك لن يتم.»

«هل تعتقد أنه سيسر بأنك أحببت؟»

«بل سيكون سعيداً جداً، فهبرت صديق أحفظ له مودة خاصة، وآمل أن تعتزي أنت أيضاً به.»

«لا بد وأنه شخص ممتاز ومميز.»

أجابها الدوق: «إنه والحق كذلك، وبعد ذلك سنقيم حفلة للمستأجرين. لكن أولاً، وحالما تصبحين زوجتي، أريد أن نكون بمفردنا؟»

«إنه لأمر رائع جداً.»

«وآمل يا عزيزتي، أن يكون لنا في يوم من الأيام أولاد ليحملوا اسم العائلة، وعلينا أن نعلمهم بأن الحب أهم من المال والمراكز.»

همست فيليسا: «سيحبوننا كما نحبهم. أرغب بأن يكون لي ولداً رائعاً مثلك.»

«حسناً، لكن إذا أحببته أكثر مني، فإنني سأشعر بالغيرة العمياء.»

فقالت فيليسا: «أنت تعلم بأنني سأحبك أنت أولاً، واعلم أيضاً بأنك لن تكون قاسياً معه كما كان والدي معي.»

«هذا شيء يمكنك التأكد منه جيداً.»

«إنني شاكرة لك لأنك أنقذتني من والدي ومن دنيس أرلين، وأعرف بأنني محظوظة للغاية لوجودك بقربي، لأنني لن أعرف الخوف بعد اليوم.»

فتأكد الدوق أن الحب الكبير الذي جمعهما، قد أبعد عنها كل ظلال الخوف السوداء التي كانت تسكنها.

تـــمـــت

www.liilas.com